محبوبة خليفة

سيرة عالية

THE STORY OF ALIAA

قصص قصيرة

دار الفرجاني

محبوبة خليفة

سيرة عالية

THE STORY OF ALIAA

قصص قصيرة

دار الفرجاني

سيرة عالية

محبوبة خليفة

محبوبة خليفة كاتبة وشاعرة من ليبيا، درست الفلسفة وعلم النفس بكلية الآداب بالجامعة الليبية ببنغازي. صدر لها (كنا وكانوا) العام 2019 عن دار الرواد.

محبوبة خليفة

سيرة عالية

وقصص أخرى

دار الفرجاني

دار الفرجاني
الطبعة الأولى 2022

جميع الحقوق محفوظة للكاتبة محبوبة خليفة ©

ردمك ISBN 9789775496874
رقم الإيداع: 19490 / 2022

9 ميدان الذهبي
منشية البكري
القاهرة
جمهورية مصر العربية
Tel: +201001619295

تصميم الغلاف: أحمد فرج

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

مقدِّمة

بقلم الروائية: رزان نعيم المغربي

استهلال

إذا كان فن القصة القصيرة من أهم خصائصه بصفته من الأجناس الإبداعية القائمة على النثر الأدبي والسردي، ينهض على المشهد واللقطة أو الومضة والاختزال والكثافة في كل العناصر: شخصيات وفضاءات والوصف واللغة، نحن هنا أمام مقوِّمات نموذجية لهذا الفن، بما يمتلكه الكاتب من أدوات تساهم في تقديم نصوص سردية تتَّسِم بالنموذجية، بعيدًا عن الاجتهاد الشخصي والتلقائية في صناعة نصٍّ سردي خارج تلك الأُطُر المدرسية، ولكن من جهة أخرى لا تُخِلُّ بمفهومها الفني وتقديم المتعة للقارئ.

بين يدينا مجموعة قصصية قصيرة بعنوان «سيرة عالية». تحتوي على ما يقارب سبعًا وعشرين قصة، وقد يبدو أنه خروج عن المألوف من حيث اعتيادنا على مجموعات لا تحتوي على أكثر من اثنتي عشرة قصة في معظم الأحيان، وتتنوَّع مواضيع القصص من حيث تقديم المكان بوصفه مُولِّدًا للحدث، أو الذهاب نحو الشخصية الرئيسية لتكون بؤرةَ السَّرد وركيزتَه الأساسية في تحريك الحدث، في قصص أخرى يصبح الحدث هو الدافع لبروز شخصية ما، أو العكس، تكون الشخصية مصدرًا أساسيًّا يقوم عليه السَّرد، وتلك اللحظة التي تصنع فارقًا في تيمة العمل.

سيرة عالية

من الجميل أن تجد نفسك واقِعًا في ورطة جميلة، بل مُمتِعة، تمامًا هذا ما حصل وأنا أقرأ هذه المجموعة القصصية للمرَّة الثانية، والمتعة شرط العَقْد بين الكاتب والقارئ. وكما قال بيسوا في كتابه «لستُ ذا شأن».

الجمال هو اسم شيء غير موجود، لكني أُطلِقه على أشياء مقابل المتعة التي تمنحني إيَّاها؛ لهذا نحن نقول عن أشياء تعجبنا إنها جميلة، ونكتفي، فيما نُضمِر دواخلنا ذلك الإحساس بالمتعة التي حصلنا عليها جرَّاء النظر أو الإحساس بتواجدنا معها في ذات المكان، بذات إحساس المتعة والجمال أكتب عن هذه المجموعة القصصية المعنونة بـ «سيرة عالية»، ولا بُدَّ من الإشارة أن معظمها نَشَرته الكاتبة محبوبة خليفة من خلال حسابها على الفيسبوك، وكانت في صياغتها الأولى لسَبْر آراء المتابعين، وهذا ما دَرَجَ عليه اليوم كثير من الكاتبات والكتَّاب، في عالم الحداثة، والقراءات المستعجلة، ويحمل في

طيَّاته عددًا من النواحي الإيجابية، سواء للمبدع أو القارئ. أولها: يتحصَّل صاحب النص على رؤية نقدية وانطباعية من مختلف متابعيه، بالذات لو ابتعد بعضهم عن التعليق المجامِل ودخل في تفاصيل السرد، وألمح إلى ما استهواه وماذا غيَّر فيه من أفكار مسبقة، يصبح الأمر استطلاعَ آراء واسِعًا لمخطوط العمل، ويستطيع الكاتب قبل تنقيحه ونشره الاستفادة أكثر، بديلًا للأسلوب القديم الذي يتبعه كثيرون في السابق وحتى اليوم، وهو عرض المخطوط على عددٍ محدَّدٍ من شرائح مختلفة لقراءته، وهنا أجزم بأنه لا يوجد كاتب يؤلِّف نصًّا ويسعى لنشره دون أن يعرضه على قارئ نموذجي يراه الأكثر مقدرةً على معالجته نقديًّا، ولو بشكل انطباعي.

أشير هنا إلى الافتقار إلى المحرِّر الأدبي في عالمنا العربي، هذه المهنة تحاط بالسرية المطلَقة، وإن وُجِدَت، رغم أنها قديمة في الغرب، ويعتمد جُلُّ الكُتَّاب على مُحرِّرهم الخاص لمراجعة النصوص ومعالجتها قبل دفعها للنشر.

لو نعود إلى افتتاحية هذه المجموعة التي اتَّخَذت منها العنوان، سوف نكتشف على الفور أنها على مدى ثمانية فصول قصيرة، دخلنا مع الكاتبة إلى حيوات ثلاث نساء، إذ تبدأ مع الجدَّة يامنة والأم عالية والحفيدة يامنة الصغرى، بالإضافة إلى مشاركةٍ بسرد حيوات الثلاث رفيقة الأم عالية وهي مريم،نحن هنا فعليًّا نلهث وراء أحداث امتدَّت بنا إلى سنوات، بدأت من الراهن الآن ثم قفزت بنا إلى الوراء، ومن ثمَّ أعادتنا مرة أخرى إلى الأمام، مغامرة ليست هيِّنة، قارَبَت فيها الكاتبةُ المناخَ الروائيَّ ولامَسَت حدوده، لكنها ارتأت أن تكثِّف وتيرة الزمن بتدخُّل الراوية العليمة، وهي الكاتبة صاحبة العمل، وصارت جزءًا من المشهد، بما تُقدِّمه لكل فصل على أنه رؤيا تباغتها بين الصحو والمنام، وتتَّخِذها عِلَّةً للسَّرد.

يتمظهر السرد الأنثوي جليًّا واضحًا في سيرة عالية، تبدو شهرزاد بغوايتها على نسج الحكايات كل ليلة لتنقذ نفسها من مصير ينتظرها، وتبرِّر لنا الكاتبة في كل فصل أنه لا سبيل لها، هناك أطياف تلاحقها وتُلحُّ عليها بإكمال سيرتها، وتتناسل الحكاية من الأخرى ونرى أن خصوصية هذه القصة تنبع من تسريد الذات في مواجهة الواقع وهو يكرِّر نفسه مرة بعد أخرى في حياة النسوة الثلاث، تُمرِّره من الجدة إلى الأم نحو الحفيدة، تصبغه بلعنة التمرُّد، أصيبت بها نساء تلك العائلة لتلقى مصائر مختلفة.

تبدأ الكاتبة بتمظهر ذاتها القَلِقَة لكتابة نصِّها، مُبرِّرةً أنه سرق منها النوم، ولا بُدَّ من سرد وقائع تلك الحكاية الآسرة، ولأن الكتابة فعلُ تَحرُّر، تفتتح أحداث النص بانقلاب في حياة يامنة أم عالية، ونعرف أنها تقيم في «درنة» بحُكم عملها مُمرِّضة، وهي القادمة من قرية بعيدة، وكانت سعيدة بتحوُّل حياتها إلى المدينة، وهَجْر حياة الريف وتقاليده، لكن تُفاجئها ابنتها الجميلة «عالية» التي كانت تُحدِث بحضورها في أي مكان ضجيجًا لا يهدأ؛ فهي شابَّة تتمتع بمزايا وصفتها الكاتبة بأنها سحرٌ لا يُضاهَى، تفاجئ الجميع بأنها وقعَت في غرام شاب قادم من البادية مسقط رأس والدتها، وبسبب «غنَّاوة عَلَم»، ونقرأ تلك التفاصيل حول طقوس العرس الليبي بوصف لا يخلو من شواهد الأغاني المحلية وكثير من قصائد العلم، ثم تنتقل بنا إلى مرحلة زمنية أخرى باتجاه طرابلس وصديقة عالية التي سافرَت إلى هناك لتصبح ممرِّضةً وتعيش حياة هادئة، ثم فجأة يعكِّر صفوها قدومُ طالبة للمعهد الذي تعمل به مشرفةً، وبين الحكايتين نعود مرَّةً إلى ذاكرة قديمة، ثم باتجاه أحداث

جديدة تدفع السرد إلى الأمام، تتطوَّر وتنمو من خلاله الشخصيات بشكل ملحوظ. تقول مريم: «عندما تأكَّدَت ظنوني وحدسي وشكوكي من الشابَّة التي أراها كل يوم وأسمع صوت «عالية» في نبرة صوتها قرَّرتُ أن أعرف مَن هي، وعُدتُ لسجلَّات المعهد، ولم يظهر لي شيء ذو قيمة؛ فأنا لا أعرف كُنيَة زوج عالية، حتى كانت تلك السهرة الخميسية وتلك الأغنية (أغنية العَلَم) التي تَردَّد صداها في المدينة التي تنام على الغناء والموسيقى وتصحو عليها».

في هذا الاقتباس –وهو من سيرة الحفيدة يامنة– تتولى صديقة الأم السرد بمُجمَلِه، وهي الممرِّضة التي صارت مسؤولةً عن قسم معهد التمريض، تشرف على الطالبات وترعاهنَّ، وتتميَّز بإدارة حازمة مع طالبات معهد التمريض، لكن مع هذه الفتاة الشابة تشعر بأن هناك إحساسًا خفيًّا يشدُّها إليها، وتسير وراءه كل ليلة بُغيةَ اكتشافه، فيما تلاحظ يامنة الشابَّة أن المسؤولة عن الطالبات تُميِّزها بنظرات غريبة، وتُتابِعُها بدقَّةٍ غير مألوفة.

أحببتُ قبل البدء بتلخيص النَّصِّ أن أسوق ذلك الاقتباس، وفيه إشارات مهمة، وهي ما يميِّز كتابات محبوبة خليفة، التي تنتمي إلى مدينة درنة شمال شرق ليبيا، مدينة تتميَّز بموقعها في حضن الجبل وإطلالتها على شواطئ المتوسط، ونسيج سكانها المختلط، يجمع بين سكان من أصول أندلسية ومن جاء إليها من الغرب الليبي في زمن سابق وأهل المدينة والأقل عددًا من نواحي ومدن صغيرة قريبة من درنة، وما يميِّز شرق ليبيا بالعموم هو قول الشعر الشعبي بالإضافة إلى قصيدة البيت الواحد التي تكثِّف المعاني في شطر قصيدة على نمط «الهايكو الياباني»، تُدعَى «غنَّاوة عَلَمّ» بتشديد حرف الميم في كلمة «عَلَم»، هذه «الغنَّاوة» ستكون في بعض الأحيان مُفتتحًا لأبيات قصيدة «الشتَّاوة» التي يغلب عليها اللحن الارتجالي، وتصبح رائجةً في الأفراح والمناسبات.

إذًا، وقبل الخوض في تفاصيل العمل الذي تَميَّز بأسلوبيَّة محلِّيَّة خاصَّة، يمكن القول إن الشاعرة محبوبة حشدت كثيرًا من الشواهد لـ «غناوة العَلَم» لتصبح ضمن المتن السردي، بحيث لا يمكن حذفها أو الاستغناء عنها، نجحت بشكلٍ مُبهِر أن تشيد معمارًا لبنية القَصِّ، من بينها استخدام تلك النصوص المعروفة، والتي يُردِّدها أبناء المنطقة، والتي لم تَحظَ بدراسة نقدية كافية، ونجد أن «غناوة العلم» في نص «سيرة عالية» الدليلَ الأساسيَّ لتتبُّع آثار علاقة صداقة قديمة نشأت بين مريم وعالية. وفي الاقتباس تشير إلى أن السِّجلَّات المدنية لا تنبئ عمَّن تكون هذه الطالبة، فيما تتابع بحثها، ومن خلال غناوة علم تُردِّدها الفتاة، تلتقطها مريم وتعثر على الحبل السُّرِّيِّ الممتدِّ بين الفتاة يامنة وأمها عالية صديقة مريم، كانت مريم تردِّد بحيرة دائمة أن صديقتها انقطَعَت أخبارها ولم تعُد تعلم عنها الكثير، فهي أيضًا كانت المرأة التي وُلِدَت في شرق البلاد وانتقلت إلى طرابلس، وتزوَّجَت رَجُلًا ينتمي إلى الجنوب الليبي.

السر يكمن في غناوة علم إذًا، هذا ما تُلِحُّ عليه الراوية طوال السرد الممتد على مدى ثمانية فصول، لتنتهي القصة بما يشبه النسيج الدائري للقَصِّ، ولفكرة تدور حول تمرُّد الفتاة الشابة وزواجها ممَّن يهتف له قلبها بعيدًا عن موطن أهلها.

وهكذا نجد أن النص تدور أحداثه حول صراع المرأة مع مجتمع له تقاليده، ربما لم تبرز هنا صورة الرجل الذي كان حاضرًا في الغياب، يأتي ذِكرُه من بعيدٍ، وتبقى الأحداث كلها تتحرك بخطاب نسويٍّ جَليٍّ، بل قادر على صُنع الحدث

والمضيّ به إلى الأمام.

كما نلاحظ كيف أصبح السرد في النص أكثر تناوُبًا بين الشخصيات الأساسية، عندما تنتقل الحفيدة إلى طرابلس العاصمة، الفضاء الأول كان في درنة والقرية الصغيرة، هناك صوت واحد يحكي بالنيابة عن الجميع، أمَّا التناوُب السردي في التعبير عن الذات في طرابلس فقد انتقل بين امرأة وأخرى، لنصل في الفصل الأخير إلى مدينة «الغريفَة» بالجنوب الليبي، في عمق الصحراء، حيث الهدوء والسكون، تتولَّى الكاتبةُ سَردَ التفاصيل، تلك المزاوَجَة بين فضاء السرد وفضاء المدن قد تكون لها دلالة عميقة على نوعيَّة الحياة في كل مدينة، سواء بإبراز الصوت الواحد، ومن ثمَّ الانتقال إلى تعدُّد الأصوات.

في سيرة عالية، نجد أننا إزاء نصٍّ برَعَت فيه الكاتبة في إعادة تشكيل المواقف والأشياء، ومن ثم إعادة التوازُن إليها، وهو أمر لم يستعصِ على قلمها، الذي سُقِيَ بمِداد محبَّة البلاد، من شرقها إلى غربها وجنوبها.

بالانتقال إلى بقية قصص المجموعة، نرى أن الكاتبة تمسك باللحظة العابرة بحيث لايمكنك الاعتراض عليها أو تخيُّل شكل آخر لها فترفضها، تجعلك تؤمن أن هذا هو الواقع، وهو ماحدث وانتهى الأمر إليه، تقنع القارئ بسببيَّة الحدث باحترافيَّةٍ عالية، ربما يعود إلى مرجعيَّتها العِلميَّة؛ لكون الكاتبة محبوبة درست الفلسفة، ومعروف أن الأدباء الذين أتوا من خلفيَّة فلسفيَّة لديهم مقدرة عالية على إقناع القارئ بشكل غير مباشر بتلك الواقعية المفترَضة للأحداث ولمسيرة النص السردي نحو مآلاته.

ونشير هنا إلى أن بعض القصص تستخدم فيها محبوبة تقنية فنية تُظهِر أن الحبكة القصصية المعقَّدة لا وجوب لها، تمنح نصَّها حرية انسيابية عالية، فتجد هناك حدثًا ما، موقفًا قد لا يسيطر من وقع عليه، أو كان شاهِدًا؛ لهذا لايهمُّ كيف تشتبك الأمور لتصل إلى نهايات مفتوحة.

الأدوات الفنية ودلالتها

وبما أن لكل كاتبٍ حرية الاحتفاظ بقوة المفردات القادرة على أخذ القارئ نحو الاتجاه لمزيد من الوعي بعدَّة احتمالات مُمكِنة- تجد صاحبة المجموعة القصصية -الكاتبة محبوبة- مُتمكِّنَة من تلك التقنية، بأخذ أي قارئ إلى فضاء فيه حميميَّة العائلة مرَّة، أو التركيز على بنية المجتمع في مرة أخرى، وتحتل تلك المفردات مساحة مهمَّة لتظهر تركيبة العلاقات في مجتمع يبدو مُحاطًا بالأسرار، غامِضًا ومشوِّقًا، بل يبدو مثل غابةٍ بِكرٍ لم تُكتَشَف بعدُ للقارئ العربي، وأشعر شخصيًّا بأن ما أضافته الكاتبة هنا في هذه المجموعة هو الدخول إلى تلك المساحة التي لم يضع قبلها كاتب/ة موطئ قدَم، وهنا أتحدث عن النصوص السردية في ليبيا، حيث منحت النصوص خصوصيتها وبصمتها الخاصة، من حيث التقنيةالفنية واللغة التي زاوَجَت ببراعة بين المغرِق في اللهجة مع اللغة الفصحى، ولم تؤثِّر على سير الأحداث،بل أعطتها بُعدًا وعُمقًا جديدين،

أيضًا إلى توظيف ما يُدعَى بغناوة عَلَم ضمن السياق السردي فلم يتم إقحامه بشكل فجٍّ، بل صار مُتَّسِقًا مع الحدث، ويُشكِّل تيمةً سرديَّةً تمَّ استثمارها بشكل داعمٍ للنص.

في معظم النصوص تسيطر الكاتبة على فكرة محدَّدة تقوم بتأطيرها بشكل فني محترف، بحيث يمكنها الموازنة بين النظرة الواقعية والتخيُّليَّة للحدث والأشخاص؛ ممَّا يجعل الشخصية تنمو في بيئة مقارِبَة للواقع، وهذا ما نجَحَت فيه تمامًا، وعلى سبيل المثال قصص: «عمتي وتشرشل»، و«سيرة كرسي»، و«سيدةالمطار».

ذكرتُ بعضًا من عناوين القصص، إلَّا أن الأمانة تتطلَّب أن نقف على كل نصٍّ لوحده، وقراءته بشكل متمعِّن، من حيث فَرادَتِه، سواء بأسلوب الطرح أو التقنيات الفنية، وحتى اللغة، إلا أني سأمرُّ في عُجالة ببعض الأدوات الفنية التي سيطرت عليها محبوبة خليفة وأمسكت بزمام أمورها، وفي بعض النصوص أدهشتني تلك الحساسية الفائقة؛ لقدرتها على المواءمة بين لغة النص وفضائه السردي وشخصياته القادمة من عمق المكان ذاته، فعندما تتحدَّث في قصة «فحمة التاقزة» (والتاقزة في اللهجة المحلية في شرق البلاد تعني العرَّافة التي تتنبأ بالمستقبل)- في تلك القصة ترسم ملامح الشخصية ببُعدِها النفسي والاجتماعي بتكثيفٍ شديد، وهذا الأسلوب ميَّز معظم أو مجمل القصص، تلك الضربات السريعة القوية، تخيَّلتُها مثل يد رسَّامٍ ماهر يضرب بفرشاته على فضاء اللوحة بمهارة مَن يعرف أين يجب أن يقع اللون، وبين خطٍّ وآخر يُميِّز المساحة المتاحة بحيث لا يمكن أن تفيض عن الحدود المرسومة،أو تنقص فتُحدِث فراغًا هائلًا لا يمكن ملؤه فيما بعدُ، بتلك الحرفية كانت المفردات تقع جالِسةً في الجملة، لا تنقص ولا تزيد، دون ترهُّلٍ مُمِلٍّ أو غموض مُقلِق.

مفردات وتِيَم أساسية في النص

لكل عملٍ سردي طويل أو قصير هوية... هذه الهوية يختارها الكاتب ويُمعِن في نحتها، وعادة ما يختار العمل على تصوير المكان (المدينة) بكل ما تحمله من إرث ثقافي- اجتماعي... ليصبح بناء ومعمار النَّصِّ قائمًا على تلك الموتيفات الصغيرة. التي تمنح النص بُعدَه النفسي والاجتماعي والثقافي، وهذا ما عالجَته الكاتبة في معظم نصوصها، وبعضق منها كان في بلادٍ ومدن بعيدة عن البيئة الليبية، مثل بغداد وروما ولندن، وغيرها... (تك تك يام سليمان، بغداد ذات ربيع، أم تكليف، حكايات من سِفر الاغتراب 1، من درنة إلى اسكوتلاند، ذات رفقة...)، وبلُغةٍ تحاكي اليوميَّ تحاول البحث عن شخصيات لها فَرادَة مواجَهَة القدر بشكل متصالح مع الحياة ومع نفسها، كما صوَّرَت تلك المدن بأُلفَةٍ وجاذبية، وتفاصيل تفيض منها الذكريات ورائحة الشاهي والقهوة بقطرات الزهر، قطرات الزهر... تلك التي تجيد صناعتها نساء مدينة درنة، وهذه الجاذبية لا يمكن للقارئ أن يفلت منها وهو يقرأ مونولج طويلًا (خبز ونساء)، وفي هذا النص تحديدًا نراه مزيجًا من التأمُّلات لسيدة في انتظار موعدٍ، جالِسةً على كرسيها تصنع ممَّا حولها أحداثًا تدور في مخيّلتها وهي مأخوذة بسحر لوحة مُعلَّقة على الجدار، تميَّزَت بقدرة عالية على استلهام ما وراء الخطوط والألوان من معانٍ، ومشتبكة بوجود سيدة تجلس

مقابل الساردة، في هذه المقاربة يظهر السرد ببُعدِه النفسي العميق، وما يعتري الإنسان في ساعاتٍ تُجبِره على انتظارٍ مُمِلٍّ في مكانٍ ما.

البدايات المفخَّخة والنهايات غير المتوقَّعة

يواجه بعض الكُتَّاب إشكالية مفتتح النص، ومن المعروف أن عَقْد المتعة بين القارئ والكاتب يتعلَّق بالسطور الأولى لأي نصٍّ، هنا يَبرُز تمكُّن الكاتب من أدواته على اعتقال انتباه القارئ وجذبه إلى فخ القراءة حتى النهاية، إذا أحببنا الاستدلال على نصٍّ جدير بالقول إنه إبداع تفوَّقَت فيه الكاتبة محبوبةعلى نفسها سوف أرشِّح قصة «عمَّتي وتشرشل»؛ حيث استهلَّت نصَّها ببضعة أسطر: «غَفْوتُها مُقدَّسة. تلك الأيام لم أكن أملك ساعةَ يدٍ. ولا أعرف كم تستغرق هذه القيلولة المقرَّرة بزمانها ومكانها. غير أنني أدرك -بغريزتي وبحبٍّ يملأ كياني- أنها هناك متمدِّدة، معتزلةً مَن حولها. ومَن كانوا حولها سيعتزلونها خوفًا وهيبةً واحترامًا»،

ثم تنتقل إلى نَحْت شخصية العَمَّة وأحداث ترتبط بشخصية تشرشل واعجاب العمَّة بتلك الشخصية التي لا تعلم عنها شيئًا، مستعينة بالصبيَّة الصغيرة ابنة أخيها لتجلب لها مزيدًا من المعلومات عنه، ونعلم أن العمة ملكة بلا عرش في عائلتها، لها سُلطانٌ على الجميع، والقارئ يتابع ما يخصُّ العمَّة بانبهار شديد، فجأة نصل إلى الختام بأن تلك القيلولة التي بدأتها في مفتتح النص كانت طويلةً للغاية، رغم مأساوية الحدث، لكن تمكَّنَت الكاتبة من الترفُّق بمشاعر قارئها وسحبه من يده نحو تلك النهاية القاسية في الواقع، لكنها مشغولة باحترافيَّةٍ عالية حتى لا تؤذي مشاعره: «عمَّتي كانت قادرةً على هَزِّ جبال عائلتنا، فتُحدِث زلزالًا يتهاوى أمامه العَبُوسُ والحَزينُ والرَّزينُ والهادئُ والكتومُ. كانت قيلولتها، ذلك النهار، طويلةً... أطول ممَّا يجب...».

في قصة «سيدة المطار» نرى كيف يمكن لسيدة أن تواجه الحياة منفردةً، سيدة متقدِّمة في العمر، لكنها قادرة على الاشتباك الحقيقي مع الثقافة السائدة، والموروثة في مجتمعٍ لديه تقدير خاص للسيدات، في الفضاء العام، ومن خلال حدث بسيط، هو تأخُّر رحلة إقلاع طائرة من مطار محلِّيٍّ لطائرة تتَّجِه إلى العاصمة، تقوم الكاتبة بتأصيل ذلك الموروث الذي يُقدِّر النساء ويمنحهنَّ الثقة في اجراءات التفتيش الشخصية، بينما نفس الثقافة في زمن القَمع السياسي على حرية التعبير، يصادر موظَّفُ الجمارك كُتبَ منهجٍ دراسي يحمله طالب شابٌّ بحجَّة عرضها على الرقابة، رغم توسُّلاته بأنها كتب جامعية، وحينما تهبط الطائرة إلى أرض المطار تكتشف السيدة الشابة المرافِقَة للسيدة المتقدِّمة في السِّنِّ أنها كانت تحمل معها سكِّينًا لتقشير الفاكهة كانت مخبَّأةً في حافظةٍ حمَلَتها مع سلَّة طعام؛ لأنهم اعتادوا على تأخُّر مواعيد الرحلات... هذه المفارقة يمكن تأويل دلالتها على مستوى الثقافة التي تتساهل مع المرأة في مواقِفَ مُعيَّنة، وتزيد من تشدُّدها على الرجل، هنا تبدو صورة معاكسة تمامًا لما يُطرَح من إشكاليات حول صورة المرأة المقهورة في المجتمعات، بل نقرأ البُعدَ السياسي المضمَر عن تلك الحقبة التي تهتمُّ بما يدخل إلى رؤوس البشر من معرفة عن طريق الكتب؛ فهي تمثِّل أولى درجات

الخطر على السُّلطة الحاكمة، أمَّا السكين داخل فضاء الطائرة يتمثَّل في الموروث الثقافي بأن تفتيش ثياب النساء –حتى من الشرطة النسائية– أقلُّ تَشدُّدًا؛ نظرًا للاطمئنان النفسي للمرأة المحمَّلة بمخزون من الطعام، فهو غير ذي أثرٍ من الناحية الأمنية.

جماليَّات لغة القَصِّ

لِلُّغة أهمِيَّة في ميادن الإبداع القصصي، وهي الأصعب في تطويعها لتصبح موظَّفةً لغرض تحميل النص بما يساهم أن تكون سَلِسةً وغير معيقة أو تُثقِل كاهله، سواء بمفرداتها أو باستطرادات لا فائدة تُرجَى منها، ولا نبالغ بالقول إن الأسلوب المقتصد هو أهم ما يميّز كاتبًا عن آخر. وهناك أمر آخر يمكن أن يؤدِّي إلى ضعف القصة في حال طَغَت لغة الكاتب على لغة الشخصيات، وتظهر من خلال تكرار مفردات بعينها تشكِّل سُلطةً على ذهن القارئ، ويشعر أنه واقعٌ تحت هيمنة لغوية تخصُّ الكاتب وليست الشخصيات المتخيَّلة. وهنا في هذه المجموعة أبهرتنا الكاتبة بمقدرتها على التنوُّع في استخدام هذه الأداة السحرية للتخييل بخطاب الشخصيات، حيث لكل شخصية أسلوبها الخاص،نابع من بيئتها وثقافتها ومعارفها، وهو ما أدَّى إلى نحت شخصيات متفرِّدة لا تشبه الواحدة الأخرى، واستطاعت إعادة خلق الواقع وتجسيده على الورق.

تجليات الزمان والمكان في النص

سبق أن ذكرتُ هنا عن إبراز هوية الشخصيات من خلال بعدها الثقافي والاجتماعي، وهذا بفضل الإشارة إلى المكان الذي احتلَّ في معظم النصوص وكان له موقع البطولة أو تقاسَمها مع الشخوص. وأبرزت الكاتبة جماليات المكان ببُعدٍ هندسي وثقافي في معظم نصوصها، التي كان للحيّز المكاني دور في دفع الأحداث والنهوض بالسَّرد بها.

بالنسبة للزمن، تجلَّى من خلال عدة أساليب ارتبطت بمَتْن النص، فلم تبدُ الشخصيات غريبة تدور في الفراغ، فكانت الأزمنة وثيقةَ الصِّلَة بما يجري، سواء استمدَّ هذا العنصر وجودَه من الذاكرة المرويَّة، أو حدث في الراهن المعاش؛ لهذا نلحظ أن العلاقة بين الزمان والمكان في النصوص المدرجة ضمن المتن السردي، تقوم على رؤية منهجية اعتمدتها الكاتبة لتَخلُص إلى تتبُّع مواقع الجمال وتعيد صياغة فضاء السَّرد من خلال دمج التخييل بالواقع، بحيث ترسِّخ صورة محدَّدة في ذهن القارئ، خطَّطَت لها الكاتبة حسب رؤيتها وفلسفتها الخاصة، دون فرضٍ وسلطويَّة، وإنما بشكل سَلِسٍ مميَّز، ولغةٍ تحاكي اليومي.

ختام

نحن هنا أمام نصوص قصصية قصيرة، تضيف إلى المدوَّنة السَّرديَّة الليبية. إنجازٌ متفرّدٍ وقِيَمٌ جمالية جديدة، ومواضيع غير مُستَهلَكة، بل متفرِّدَة في خصوصيَّتها، من حيث الأدوات الفنية وجمالية اللغة وإتقان العمل.

ممَّا يُميِّز هذه المجموعة أنها جاءت ناضجةً مُكتَمِلة، من قلم متمرِّس على السرد، في حال التذكير بأن للكاتبة عملًا سرديًّا سابقًا، بالإضافة إلى أنها شاعرة، رغم ذلك نجحت في إبعاد الشِّعريَّة الغنائية والإطناب في الوصف في سياق السرد القصصي، وأجادت في رسم ملامح عمل قصصيٍّ مختلف، يمكن أن يخلق –مستقبلًا– بابًا جديدًا للبحث في السرديات الليبية التي تكتبها المرأة بكل إتقان وإبداع، وقد خلَّفت نصوصًا طازجة.

تقديم

بقلم: عايدة عتيقة*

«بعد انكمل مراجعة الكتاب الجديد. حندزلك الدرافت بتاعه. تقريه على امّهَلِكْ** بيش تكتبيلي المقدمة»

أنا؟! أكتب مقدمة لكتاب ولمن هذا الكتاب لأمي؟! كانت تلك الأسئلة التي لم تغب عن عقلي وتفكيري فكيف لي «أنا عايدة» أن أضع في كلمات أي شئ يخص أمي! ماعلينا.. بعد أيام وأيام من التفكير ومحاولات عديدة لأترجم مشاعري إلي كلمات أعتقد والله أعلم أنني جاهزة!

أنا التي كبرت في بيت كان الكتاب فيه أساسياً مثل أي ضرورة من ضروريات الحياة فنحن نأكل ونشرب ونقرأ! وكان لوالديَّ الفضل في جعلنا نحب الكتاب، فأمي لم تفرض علينا أي شي بل كانت هي المثال المحبب والذي نتطلع لأن نحتذي به فكانت ولازالت جاهزة لتجيب عن أي سؤال وأي حيرة في عقل مراهقة متخبطة، كانت أمي جاهزة في أي وقت لتحتوي أي مشكلة بسلاسة وسهولة وبصوت هادئ لطالما حيرني ذلك الهدوء ولكنني بعد مرور السنين عرفت السبب ولكنني لم أصل لهذا الهدوء بعد!

أمي تجمع بين الصلابة والرقة بخليط لا يفسر فهي صلبة كالصخر ورقتها كالريشة، لا تظهر حزنها ولا تبالغ في فرحها فكان التوازن هو أساس البيت. كنت أعرف أنها يومًا ما ستحقق ما طالما حلمت به (كتاب لها)!

سعادتي بتحقيق هذا الحلم ليس لها مثيل وها نحن اليوم نكتب مقدمة كتابها الثاني وما هي إلا البداية لكتب وقصص وحكايات مقربة للقلب تحمل فيها العبق الدرناوي والنسيم الطرابلسي واللمسة الإيطاليه وكل ما كوَّن هذة السيدة الرائعة وشَكّلها من خلال رحلاتها فهي لم تكن يومًا عابرة سبيل فقط بل كانت عدسة تلتقط وتخزِّن وتثري أي موقف وتسترجعه في ساعة صفا بصبغة جميلة محببة، أمي لها من أسمها نصيب.

في (سيرة عالية) نجد هذا الخليط في الحكايات التي تضحكنا وتبكينا، ومن منا لم تذكّره (غناوة علم)*** بحب مضى أو بشوق و«ارياف»****لعزيز طال غيابه. سيرة عالية والقصص المصاحبة جمال لا يضاهيه جمال. قصتي وقصتك وقصة تلك الجدَّة البعيدة. استطاعت أمي أن تجمعها وتدفئ قلوبنا بها. وأنا (عايدة) أريد ان أشكرك والدتي الحبيبة فأنت مثلي الأعلى ومن أتطلع ان أسير على خطاها أنت الكتاب الذي تعلمت ولازلت أتعلم منه وكم أنا محظوظة وممتنة لهذة الحياة التي أنت لي فيها ملهمةً ومعلمة،شكراً أمي.

---

* عايدة عتيقة:إبنة الكاتبة.

** امّهَلِكْ:على مهلك.

*** غنَّاوة عَلَمْ:فنٌ معروف شرق ليبيا وهو بيت واحد من الشعر مغنّى بطريقة خاصة.

**** ارياف: الشوق الشديد بلهجة شرق ليبيا.

عالية (1)

حينما يتعسَّرُ مَسارُ السرد، ويتخشَّبُ القلمُ، وتكثرُ مَساربُ الخُروج بالحكاية، ولا يروقني شيءٌ منها.

شاردةً هذا النهار بأكمله، لم ترتَح لهذه الإشارات ولا قَبِلَتها، لكنَّها ستواصل عملها على كل حال.

كانت قد غادَرَت بيتها فجرًا تحث خطاها، ويعرفُ مِشيتها المسرِعة كلُّ أهلُ مدينتها. غَبَشُ الصباحات يعرفها؛ فطوال أسبوع عملها تراقب انقشاع الظَّلام رويدًا رويدًا، وترقبُ بزوغ شمس الله، لكنَّها ستكون في ردهات المستشفى، وتترك الشمس لمن سيستيقظ بعدها.

شاردةً هذا النهار، لا تعرفُ كيف ستمضيه، ووراءها مهامُّ إنسانيَّة وطوارئ لا مواعيدَ فيها. هي تعمل قابِلةً ومساعدة للسوريلات(*)، تترجم عنهنَّ، وتستقبل معهنَّ مواليد المدينة: الدراونة (أهل «درنة») الجُدُد.

ما الذي جرى لبيتها السَّاكن بلا حركة دومًا؟ كيف ضربته تلك الرياحُ الهوجاء فاقتلعت سكونه؟ متى حدث هذا؟ وأين كانت؟

لا مكانَ لها بعيدًا عن بيتها. هي كثور الساقية، تدور بين الماء والأرض، تسحبُ الماء لتسقي الأرض، وتُعيلُ وتُربِّي. طريقٌ واحدة لا تعرف غيرها، ولم تبدِّلها لربع قرن، فمتى حدثت الغفلة؟

لها من الذُّرِّيَّة اثنان: ولدٌ وبنت. يعاني الولدُ من إعاقة أربَكَت حياتها، وغلَّفَت قلبها بالسواد. أمَّا البنتُ فكانت آيةً من جمال، باكتمال الجسد العَفيّ، بتفاصيل تدير الرؤوس، رؤوسَ وعيونَ كلِّ مَن رأوها، فأوقعهم الجمال في غياهب الذهول والتَّمنِّي أن تكون من نصيبهم وسيِّدةَ بيوتهم.

«يامنة» كان هذا اسمها، وتُلقَّب باسم قبيلتها ذائعة الصيت كبيرة العدد، ترتكز بمناطق قريبة من درنة. تعلَّمَ شبابُها في المدينة، ونادرًا ما يسكنون بها، بمجرَّد إتمامهم الدراسة الثانوية يذهبون إلى بنغازي أو إلى طرابلس، حيث الجامعة الليبية: جامعة واحدة، وكليات كثيرة، متنوِّعة ومُوزَّعَة بين المدينتين.

لم تكن «يامنة» من المحظوظات بتعليمٍ نظاميّ؛ فقد التحقت بعد الابتدائي بدوراتٍ للتمريض، وتحصَّلَت على وظيفة تعيلُ بها أُسرتها، ومن هذا الوسط (المستشفيات والممرِّضين) جاءها نصيبُها، واقترَنَت بزوجها، وأقامت حيث يقيم، قريبًا من مستشفى المدينة الوحيد.

هذه حكايتُها... لا قصص مثيرة فيها، ولا تحوُّلاتٌ تُعيد تشكيل حياتها ومساراتها، رتابةُ الحال من فجر الله إلى مغيب شمسه، ثم العودة لبيتها، وإتمام مهامها اليومية؛ استعدادًا ليومٍ كدحٍ آخر... إلَّا ذلك اليوم، الذي واجهتها فيه ابنتها الشابَّةُ بطلبٍ غريب، لا يشبه حكاية أمها، ولا حكاية أهلها القادمين من خارج المدينة، في محاولةٍ لتحسين أحوالهم، عِلمًا وعملًا وتلاقُحًا بين مجتمعاتٍ بينها اختلافات، وبينها أيضا توادٌّ ورحمة ولُحمة ما عرَفَت شَرخًا في تاريخها القريب.

الفتاة لا تريد استكمال تعليمها، ولا تريد البقاء في دَرْنة، ولا تريد أحدًا من هؤلاء الساعين لخَطبِ ودِّها. قلبُها معه هو فقط ولا أحد غيره.

تقلِّبُ الأمُّ ساعات يومها وتتساءل: في أي غفلة حدث كل هذا، ومتى؟

لم تفسِّر البنتُ، ولم تحكِ شيئًا!

تقول الأمُّ وهي تهمسُ لرفيقتها في المستشفى: دخَلَت علينا أمُّه وخالاته، وجلسن متأمِّلاتٍ الصَّبيَّة بعيونٍ لا ترى في حُسنها مُنافِسًا لحُسن البداوة وصباياها، مندهشاتٍ لرغبة الفتى وتخطِّيه كل بنات منطقته ليَهيمَ بعيون «عالية»، غير أنهنَّ كُنَّ في مَهمَّة، وعليهنَّ إنجازها، وأنجزْنَها.

لا صوتَ يعلو فوق صوت «عالية»، ووجيب قلبها. سارقُ هذا القلب راعٍ صغيرٌ ووسيم، يعيش مع خِرافِه وعشيرته خارج المدينة. لا يبتعد المكانُ كثيرًا –مسافةً– ولكنَّه يبتعد كثيرًا عاداتٍ وتقاليدَ. هل ستعود عالية إلى الدائرة الأولى، من حيث أتت أمُّها وأخوالُها وكانوا أطفالًا؟

تريدُ ذلك الرجل. من نظرة واحدة، و«غنَّاوة عَلَم» قالها مذهولًا بجمالها: «اعزاز وطنهم فاتوه سمعوا نباك جو جاي يا علم»(**) فعَلِقَت بشباكه وكان نَصَبَها، ولم تأخذ وقتًا طويلًا، حتى كان صيده الأثمن.

ستعودُ عالية من حيث أتت أسرتها. لن تسعدَ أمُّها بهذا القرار، ولن تهنأ بحياةٍ أرادتها وخطَّطَت لها... وها هي ابنتها تعاكس مسار أهلها، وتزعجهم بقرارها واختيارات قلبها... لم تنتهِ الحكاية. لا تريد أن تنتهي.

---

* السوريلا: الراهبة الممرضة.

** غنَّاوة عَلَم: غناوي عَلَم فنٌ شعبي يتميز به شرق ليبيا فيه تكثيفٌ شديد للمعنى، وهو مكوَّن من بيت شعري واحد، يسمِّيها الأديب الليبي خليفة التليسي: "قصيدة البيتُ الواحد"، والمعنى هنا أن صيتك وجمالك هو مَن تَرَكْنا أوطانَنا من أجله.

عالية (2)

اشتباك... بين المنام واليقظة!(*)

تردَّدتُ في الاستجابة؛ فأنا لا أعرفها؛ فكيف تُناديني باسمي؟ لا بل تقول أنا ابنة مَن فتَحتِ سيرتها على الملأ، وأخبرتِ الناسَ ببؤس حالها ولوعة قلبها.

«عالية!»، صرختُ بأعلى صوتي، وواصلتُ: «ما أجملك يا صبيَّة! وما أجمل سيرتك وسيرتها! أنا وقلمي تحت أمركما. اطلُبَا ما تشاءان، وسيُطاع الجمال وأهله». اقترَبَت مني ووضَعَت يدها على كتفي، وأخبرتني بسعادةٍ: «لا تنزعجي، ولا تُزعِجي قُرَّاءَكِ، (يامنة) بخير، لقد أقنعتُها، وبدَأَت هي استعدادات الفرح، ستأخذني وصديقاتها إلى بيتي، وإلى من اختاره قلبي وقدري».

«إذن هي أنتِ؟»، ولا زال ذهول الدقائق الفاصلة بين منامي وابتداء ساعات النهار -مُعلِنةً أنَّ ما كنتُ فيه هو محض اشتباك بين قلمي والصور التي اختلطت عليه- فما عرف أيَّهما الرؤيا وأيَّهما التدوين!.

كنتُ شديدة القلق على «يامنة». ستتعثَّر في خطواتها التي كانت واثقةً وتمشيها كملكة. ماذا سيجري عليها إن أودَعَت ابنَتَها بعيدًا عنها وعن المدينة التي تحب؟.

يصفُ القلم الآن يوم زفاف «عالية» بعد أن اطمأنَّ لحالتها:

تتهادى السيارات الجميلة الفاخرة، وهذه عادة الدراونة: يختارون أجمل ما يملكونه منها، ويشاركون بها أفراح أصدقائهم، فما بالك والمحتَفَلُ بها اليوم هي ابنة أمِّهم «يامنة»، التي استقبلت معظمهم على يديها ذات يوم.

السيارات ممتلئة بمعارف «يامنة»، وصديقات «عالية». والغناء يعلو وينخفض حسب حالات راكباتها. تهاجم الدموع معظمهنَّ عندما تلتقي عيونهن بعيون «يامنة». هل تحتفل أم تتوجَّع؟ كانت تستعدُّ ليومٍ آخر غير هذا، لكن ابنتها استعجلت وأطاعت القلب اليافع قليل التجربة.

«ربيعك يا باهي التوصيف يزهّي في حنَّان الصيف»... «مبروكين على اللي جاته هي زينة والزين خذاته»... «غزالة واخذها لاريلّ»(**)... «امبيريكة(***) عالناس الكل»(****).

استأنست القادماتُ من المدينة بهذا الاستقبال المسالم؛ فالكلمات لا تحوي استفزازًا، بل إطراء للعروسين. كانت المستَقبِلات على حافَّة الطريق يُغنِّينَ للضَّيفات من أهل العروس وصديقاتها.

وكانت معركة «شِعريَّة» حامية الوطيس قد حدَثَت بين صديقات يامنة وبين أهل العريس (الحنايات) القادمات من بعيد، المتربِّصات بأهل المدينة، يبدين تعاليًا وفخرًا برِفعَة العريس وقبيلته وأهله، وأن أسرته أطاعته رغم جمال بناتها وعلوِّ قدرهنَّ، وهنا حدثت المبارزة الشِّعرية اللطيفة بين الأُسرَتيْن، وانتهت بنقطة لكليهما: لا غالب ولا مغلوب.

ترجَّلَت السيدات من السيارات؛ فلا طريق فرعيٌّ يوصلهنَّ لبيت أهل العريس، وسيتكبَّدن عناء المشي لمسافة لا بأس بها. كنَّ يساعدن العروس السعيدة حتى لا ينغرس كعبُ حذائها العالي في التراب الأحمر القاني فيَفسَد الحذاء، ويتَّسِخ فستان الزفاف. والأمُّ مرتابة من هذه الافتتاحية، غير أنها قَبِلَت، وانتهى دورها.

«وصلت عالية، وصلت عالية، وصلت العروس!»... تصايح الأطفال، وتدافعَت بنات المنطقة يعايِنَّ «البضاعة»، ويحاولنَ معرفة سبب اختيار ابنهم لهذه الغريبة، ورأينَها ووجدنَ العُذرَ؛ فالصَّبيَّة لا مثيل لجمالها المخلوط بزين البداوة وچيناتها الحاضرة فيها، وبين حُسن بنات المدينة.

نسماتُ ربيع، وصوتُ ثغاء الخِراف، وخرير جداول المياه، ولون التراب الجميل، وأطباقُ الأرز المغطَّاة باللحوم (لحم على حِلَّه)(*****) وأكوابُ اللبن بخيره المغطى بزبد طازج تبقى على الشفاه، فتحدث في ضمير الجالسات راحةً وقبولا.

عالية اختارت ربيع أجدادها فعادت إليهم، غير أنها لن تبتعد. فالطريق الواصلة بين مسقط قلبها ومسقط رأسها قصيرة، أقصر من الوقفة ما بين اغنية العَلَمْ وشتّاوتُها(******).

تقول «يامنة»: «ويا (عالية) عندي عين تذرف عليك ليلة بطولها»... وتردُّ «عالية» بقلبٍ أعماه العشق: «بَكَّايا عيني وعنيدة... ما تاخد غير اللّي تريده».

---

* ملاحظة من الكاتبة: مفتتح الحكاية كانت لمنام.

** لاريل: ذكر الغزال.

*** امبيريكة: تصغير مباركة.

**** هذه الأغاني تنتهي بها عادة المبارزة الشعرية التي تعدد مناقب العريس أو العروس وتفوقه على الطرف الآخر.

***** اللحم على حلَّه: قطع اللحم الكبيرة دليل الكرم.

****** أغنية العَلَمْ والشتَّاوة فنٌّ غنائي معروف في شرق ليبيا.

عالية (3)
ما لي بها لا تتركني في منامي ولا في يقظتي؟!

أسرعتا الخطى؛ فالوقت سحبهما، وللمدينة الكبيرة إغراءٌ لا يُقاوَم، فما بالك بشابَّتَيْن قادِمَتَيْن من الشرق ومن الجنوب البعيدين. تتعثَّر «يامنة»؛ فخطوات صديقتها المسرعة أزعجتها...

طالَبَتها بالتريُّث؛ فلا شيء يستدعي العجلة. تردُّ الصبية: «لا شيء يستدعي العجلة؟ يا بنت استعجلي... الظلام على الأبواب». «الظَّلام؟!»، تستنكر «يامنة»: «يا بنتي هذه مدينة الأضواء (وذهاب الشيرة)(*)... هذه طرابلس، وين الظلام؟».

تمهم الصديقة المتوجِّسة: «لن أنتظر هذه الخطوة أبدًا. سأسرع حتى لا أتورَّط في عراكٍ مع حارس البناية، ولا أريد رؤية وجه المشرفة. إنها تبحث عن سببٍ لترفع صوتها فتخيف الجميع».

«خلاص آني جاية حتى نا ما نبيش قصقصتها(**)، كل ما اتشوفني، تواصل: (يامنة)!... تبادرني دائمًا بدهشَةِ الذي عثر على ضالَّة فقدها منذ زمن بعيد، وتُتبِع الدَّهشةَ بكلماتٍ مُبهَمَة، أسترق السمع لها أحيانا فتصلني: يا سبحان الله شبه في الشكل وتطابق في الاسم!... لم تُكلِّف نفسها يومًا بالاقتراب مني أكثر، ولا حتى تفسير هذه الحالة التي تنتابها كلَّما رأتني».

تسترسل «يامنة»: «ما بها يا صديقتي؟ ماذا تريد مشرفتنا مني؟»، وتُطَمئِنُها فاطمة -ابنة الجنوب القادمة هي الأخرى لنفس المعهد للدراسة-: «لا تهتمِّي. هذا ديدنُ المشرفات. يقفن منَّا على مسافةٍ واحدةٍ؛ حتى لا يُتَّهمن بالمحاباة، أو تفضيل إحدانا على الأخرى، وربما تفعل ما تفعله معكِ مع كل بنات الداخلي. ربما!». وتواصل «فاطمة»: «حتى إنها سألتني مرَّةً أين تقع (الغريفة)؟»(***)، وواصَلَت تدندن: «اليوم يا غريفة فيك الضي وفيك ازويل يعزّ عليّ».(****)

تضحك «يامنة»: «وإذا غنَّتْ لي ماذا ستقول؟... درنة والمنقار العالي وين خطم زولك يا غالي؟(*****)

تكنيني دائما بال (بناخية)(******) فتزداد حيرتي!».

تجتازان الميدان الصغير مُتوجِّهَتَيْن إلى شارع «السيّدي» المكتظ بالناس والسيارات، رغم ضيقه. واصَلَتا المسير لخطوات، فتبدو بناية بحالة جيدة، كانت نواةً لأول معهد تمريض في المدينة، وكانت تؤمُّه الشَّابَّات الليبيَّات، ومن بينهن مَن

ستصبح فيما بعدُ زوجةً لحاكم البلاد.

تُحيّيان الخفير فيردُّ التحية ببعض غضبٍ، لكنَّه رجلٌ لطيف، وعنده بنات بعمرهما، وقلبه «رهيّف» عليهنَّ كلهنَّ، وكأنَّهنَّ بناته... اجتازتا العقبة الأولى، وعليهما الآن عبور «البرزخ»، كما يُسمّيان مكتبها الذي يقع في الرَّدهة المؤدية إلى ممرَّات الغرف، والذي تواجه نافذته بابَ البناية الداخلي، فإذا فُتح بان لها الداخل والخارج، والويلُ عندها لمن تأخَّرَت ولم يكن لها عُذرٌ يُناقَش! وهذه المرَّة عابرتان: فأي صيد وأي شباك وأي ليلةٍ ليلاء؟ فليتلقَّيَا وعدهما.

حاوَلَتا التَّسلُّل، لكنَّها كانت لهما بالمرصاد، فتقدَّمَتا منها مُحيّيتين، فلم تأبه لتحيتهما، وتساءَلَت: «وين كنتن؟»، وتردُّ «يامنة»: «كنَّا في السوق، تنقصنا بعض الأغراض». وتزداد دهشة السيدة من هذا الصوت!

يا إلهي! حتى نبرة الصوت واحدة، لكن ليس وقته. تحكي مع نفسها: «هذا وقت الحساب». تهدِّد وتتوعَّد، فتُطَأطِئ الاثنتان رأسيهما معتذرتيْن، ويعدانها بألَّا يتكرَّر هذا مرَّةً أخرى، وتقبَلُ العُذر، ويسرعان لغرفتيهما، وتزداد حيرة «يامنة»: «ماذا تريد منِّي هذه المرأة؟ لماذا ترمقني بهذه النظرات؟»، وتردُّ «فاطمة»: «لا تستعجلي، لن يمضي وقت طويل، ستفسِّر لك هذا الذي ينتابها كلَّما رأتكِ».

هذه السيدة المليحة جميلة المحيَّا، بعينين سوداوين واسعتين، يعلوهما حاجبان مقوَّسان، يبدوان كهلالين، وشَعر فاحم طويل، وجسد عَفيٍّ، رغم السنين والتعب والعمل والكد. درَسَت الابتدائي والإعدادي في مدينتها الصغيرة درنة، ثم اختارت –برفقة بعض فتيات المدينة– الذَّهابَ للدراسة في طرابلس، في نفس المكان الذي تديره الآن.

تتخرَّج وتعمل في المستشفى القريب من المعهد، وتقيم في المدينة، وتتزوَّج من أهلها، وتنجب وتتواصل علاقتها ببلادها كلها، من خلال هذا التجمُّع الكبير والجميل لممرِّضات المستقبل، الدارسات بالمعهد والمقيمات به، والذي تولَّت إدارة القسم الداخلي منه فيما بعدُ...

اعتادت أيامها ولياليها في هذا المكان، متفرِّغةً تماما لعملها؛ فهي مُطلَّقة، وبناتها الثلاث تزوَّجن. وعملها فيه مريح، بين إدارة شؤونه وأحوال ساكناته الصبايا، غير أن أمرًا ما حيَّرها، ولا يزال، إنها هذه الفتاة الجميلة، التي تراها وتعجبها لنشاطها وحيويَّتها، والأهم: هذا الوجه، وذلك الصوت.

كانت الفتيات يُقِمن كلَّ خميس حفلًا بصالون البناية، يُغنِّين ويستمعن للأشرطة، أو يستمتعن بفيلم سينمائي تعرضه لهنَّ إدارة البيت، إلا تلك الليلة؛ فقد اقترحن أن يمضين الأمسية بسباق أغاني العَلَم، وهو احتفالٌ معروف في بيوت الطالبات، حيث تبدأ إحداهنَّ بأغنية بعينها، فتلتقط أخرى الحرفَ الأخير وتضيف أغنيةً أخرى تبدأ به، وهكذا.

كانت المديرة مريم (وهذا اسمها) تجلس بعيدًا، لكنها تسمع وتستمتع، وتستعيد بما يصل إليها جمالَ أيامها وشبابها وصحبتها. صحبتها؟ نعم، صحبتها الطويلة مع الكثيرات ممَّن درَسَت، أو عملَت معهنَّ، وتحتفظ لهُنَّ بودٍّ غامر ومحبَّة ما طالها الدَّهرُ في صفاء أيامه ولا حتى في نوائبه بشيء.

ظلَّت تتابع نشاطهن، وإذا بصوتٍ تعرفه وبأغنيةٍ أيقظتها من حيرة طويلة: «يا (عالية) عندي عين تذرف عليك ليلة بطولها»(*******). وقفَت المرأة وقد هالها ما سمعَت ولم تتمالك نفسها من الدموع، واندفعت حيث تجلس «يامنة»، وأحاطت الفتاة بذراعيها، ونادتها: «يا (سَميَّة)... صديقتي... ورفيقة أيامي، الآن فُكَّتْ شِباكُ حيرتي، أنتِ إذن مَن مَلَكَتني بصوتها وتقاسيم وجهها، تعالي واحكي لي ماذا فعل الزمان بـ (عالية)».

---

* ذهاب الشيرة: عدم التركيز.

** القصقصة: محاولة معرفة كل شيء عن الغير.

*** الغريفة: قرية صغيرة في الجنوب الليبي، والكلمة تصغير لكلمة "الغرفة"، ويقال إن أحد شيوخ قبيلة الحطمان بنى مبنىً عاليًا فوق داره، عُرِفَت من قِبَل زوَّاره بغريفة الشيخ عبد الله، ومنها سُمِّيَت المنطقة بهذا الاسم (ويكيبيديا).

**** أغنية أعراس والمعنى أن الغائب العزيز عاد وأضاء المكان.

***** درنة والمنقار... أغنية تتميز بها مدينة درنة وتقال في الفخر.

****** البناخي: تعبير من شرق ليبيا ويعني به ابن الأخ أو الأخت...

******* الغناوة التي غنَّتها "يامنة" في وداع ابنتها "عالية" ليلة زفافها، وتَناقَلها الناس فيما بينهم، وهي من تأليف الكاتبة.

عالية (4)

«ويا مريم(*): (اللي قلبها مرهون...

انريدوا نباها كلنا (**))»

لم تنَم تلك الليلة. لم يهدأ ضجيج قلبها ولا ذاكرتها... تهيَّأت لها صورتها معاتِبةً: «أين أنتِ يا مريم؟ أكنتِ تُؤجِّلين معرفة حالي حتى تسمعي من ابنتي ما سَمِعتِ؟».

نَهَضَت من سريرها وأضاءت الغرفة، وتحسَّسَت الكرسي بجانبها تتأكَّد، «أكانت هنا؟ أزارَتني؟ أجاءت مُعاتِبةً، أم الشوق لتلك الأيام؛ ولذلك العمر هو مَن جاء، وهو مَن ملأ الغرفة بصورها وحكاياتها، وحياتها وسيرتها، التي حيَّرت مدينةً بكاملها؟».

تقول مريمُ: «عندما تأكَّدَت ظنوني وحدسي وشكوكي من الشابَّة، التي أراها كل يوم، وأسمع صوت (عالية) في نبرة صوتها؛ قرَّرتُ أن أعرف مَن هي، وعُدتُ إلى سجلَّات المعهد، ولم يظهر لي شيء ذو قيمة؛ فأنا لا أعرف كُنيَة زوج (عالية)، حتى كانت تلك السهرة الخميسيَّة، وتلك الأغنية (أغنية العَلَم) التي تَردَّد صداها في المدينة، التي تنام على الغناء والموسيقى وتصحو عليها».

تذكر «مريم» أن تلك الأغنية راجت في أعراس درنة، وأن الكثيرين أضافوا إليها، وأن الشتَّاوات(***) المصاحِبة، تنوَّعَت بين إكبارٍ لهذا الحب، الذي نزل على المدينة وفتاتها كهالَةٍ من نور أضاءت ليالي الناس وقلوبهم، وبين إشفاقٍ على «عالية» من حياة لا تعرف صعوبتها وتعبها، وبين حسرة الشباب وقد أفلتت من قلوبهم وبيوتهم –التي كانوا يحلمون ببنائها– صُحبَة تلك الصَّبيَّة وجمالها الذي سلب عقولهم.

تُواصِلُ: «غير أن الناس نسوا (عالية) وسيرتها؛ فالحياة تمضي ومشاغلهم تزيد، وأولادهم كبروا، وصارت قلوبهم شتَّى. بعضهم خرج من المدينة يسعى لتحسين أحواله، وبعضهم تاه وراء دعوات مُبهَمَة بدأت تروج بينهم للعودة إلى دينهم، الذي سلبته منهم هذه الحياة المتسارعة، وربما عَتبَ بعضهم على هؤلاء الأهل الطيِّبين، معتدلي الفكر والتوجُّه؛ لِتَرْكِهم أولادهم ليختبروا الحياة بعقلٍ منفتح على الآخَر، مهما كان هذا الآخر، ومهما كانت خطورته، التي أدركوها بعد فوات الأوان. وربما لعوامل أخرى لم تظهر بعد حتى الآن!».

«تبدَّلتْ درنة» تقول مريم، «تركناها بحالٍ وعدنا إليها، وقد تغيَّر من الحال الكثير. كانت تقذف كُتَلًا من الحِمَم الغاضبة في وجه الظروف والحياة». تقول: «لو أنَّه تيسَّرَت لوالدي حياةٌ طيِّبة؛ لاستطاع إرسالي لأتعلَّم في بنغازي، في جامعتها الوليدة، ولَكُنتُ مع صديقات عمري من أوائل الدَّارِسات بها.

لا عليكَ يا أبي. لستُ ألومُكَ، ولا رفضت يومًا اختياري لهذه المهنة، التي تعلَّقت بها، والتي تعرَّفت من خلالها على (يامنة) وعلى (عالية) ابنتها، التي صارت صاحبتي وصاحِبةَ ذاكرتي وأيَّامي».

«عالية» ذات القلب الربيعي المزهِر على الدَّوام... «عالية» وسيرتها التي تخبو وتظهر. كلَّما ذَكَر الذاكرون «عالية» تَنبَّهَ الناس لغيابها، لم تعُد تُطِلُّ على المدينة، التي رأت عيونُها نورَها ونوَّارها. درنة التي تعشق قصص «الغلا»(*****) وأهله وتتبع أحوالهم ولا تنساهم أبدًا.

بعضُ هذه القصص تحوَّل إلى «خرَّاف»(******)، تحلو به ليالي السَّمر في بيوت المدينة، وبعضها تحوَّل إلى أغنية تتردَّد في أعراسهم، وبعض النساء يتبارين في إضافة بيت شِعرٍ إلى «الملالاة»(*******) التي تصحبها الآهات والتَّذكُّر، فيتحشرج صوت المؤدِّية وتتأثَّر المردِّدات... كانت الفتاة حاضرةً رغم غيابها.

«ما الذي جعلها تغيب؟» تتساءل مريم...

تقولُ بعض الروايات إن عالية تمرَّدَت ذات يوم، وأعلنت أن هذه الحياة لا تستطيعها... وأن عريسها الراعي الذي يعيش وأهله على هذه المهنة، يتوارثها جيلٌ بعد جيل، قد صُدِم وثار حينما رأى أن الحبيبة لا تعرف تفاصيل حياتهم، ولا تريد أن تعرف. وأنه أعاد عليها ما تعهَّدَت به حين وقعَت فريسةَ هواه وأشعاره التي سلَبَت فؤادها وعقلها. غير أنها لم تأبه لما كان يقول، ولم تستطع تنفيذ ما يريد. وتقول رواية أخرى إن هذا الراعي كان فارسًا لا ينافسه أحد، ومضماره قلوب الجميلات. فلم تكن عالية وحدها مَن أوقعها وأوصلها مَرابِعَ لم تألفها ولم تقدر عليها.

كثرت الحكاياتُ وتوالت الأخبار، حتى كان صباح يوم شتوي شديد البرودة، يقولون إن درنة لم ترَ شتاءً قاسيًا كذلك الشتاء ولا ذلك النهار.

تتحدثُ «يامنة» لـ «مريم»: «كانت جدَّتي (يامنة) في عملها تستقبل مواليد المدينة –صحبة السوريلات– بصخبها وضحكاتها، التي تعلو كلَّما كان المولود ذكرًا، وتخبو إذا أطلَّ وجه صبيَّة. حدثت ضجَّةٌ في الممر المؤدي لغرفة التوليد، فبعض مرافقي السيدة حريصون ألَّا تعرف أُمُّها حتى تتِمَّ عملية الولادة، وبعضهم أصرَّ على تبليغها؛ فهي أمُّها وهذا عملها.

غير أن الضَّجَّة أيقظت (يامنة) من غفوةٍ صغيرة تنعم بها بين ولادة وأخرى. خرجت للممرِّ للتَّقصِّي، وأدرَكَت أن (عالية) هي مَن ستلِدُ في هذا الفجر الشديد البرودة. تراجَعَت قليلًا لتُهدِّئ أنفاسها المتسارعة، وضجيج قلبها وضرباته الهادرة كموج وادي درنة، عندما يجتاح المدينة بلا رحمة.

أفاقت من الصدمة الأولى، وهرعَت لترى الحبيبة التي عانَدَتها، وأصرَّت على اختيارها، وذهَبَت لمن سكن قلبها واستقرَّ فيه، بسبب غَزَلٍ سريعٍ ارتجله ذلك الراعي، عندما وقعَت عيناه على جمالها، الذي لم يرحم أحدًا.

احتضنت ابنتها بخوفٍ ورعب... فالبنت التي تراها غير التي كانت. ما الذي جرى؟ هل الحَملُ هو ما يُتعِب جسدها، أم القلب المشغول بحبيبٍ ينشغل عنها بمراعيه وراعياته الشَّابَّات؟ لا تعرف الأمُّ على وجه التأكيد؛ فتتعاظم حيرتها وتتشابك خيوط وساوسها، وترفع عالية يديها وتحتضن أمها، وتهمس لها بضعفٍ ووهَن: «يا يام(*******) آني جيتك، وان جتني ابنيه انريدها كي صِيتك، وودِّي اتكون سميّتك، يا يام (عالية) توصيك».

ولا زالَت «عالية» تتشبَّث بقلمي وقلبي...

---

* مريم راوية هذا الجزء وصديقة يامنة ومشرفة القسم الداخلي بمعهد التمريض.

** والمعنى أننا نريد معرفة أخبار عالية العاشقة، والغناوة من تأليف الكاتبة.

*** الشتاوات: جمع شتَّاوة وهي ردٌّ على أغنية العَلَم، يصاحبه التصفيق والرقص.

****الغلا: الحب.

***** خرَّاف: قصص الجدَّات.

****** الملالاة: شكل من الغناء الهادئ الإيقاع، المشوب بالحزن، المصحوب بتكرار كلمة "يا لالال"!

******* يا يام: يا أمي.

عالية (5)

تواصل «مريم» القصَّة. قصَّة شقيقة روحها «عالية» كما سَمِعَتها من ابنتها «يامنة». تقول: «كان فجرًا باردًا في بداية يومٍ شتائيٍّ من شتاءات درنة المعروفة ببرودتها الشديدة...

تمتلئ غرفة الولادة بالسوريلات، وتتلقَّف إحداهُنَّ الطِّفلةَ وتتأمَّلها مذهولةً، وتصدر منها صيحةُ إعجاب، وبإيطالية مُحبَّبة تقول: (هذه لنا!)، ويضحك مَن في غرفة التوليد ويوافقونها؛ فالصغيرة شقراء بعيونٍ زرقاء وبَياضٍ لا تخطئه عين. لكن (يامنة) لا تأبه بها، فما يعنيها في تلك اللحظة هي بنت كبدها، (عالية) ليست بخير؛ فالشحوب المفاجئ يعتري وجهها، وترتعش أطرافها، والنَّزيف الذي لم يتوقَّف... علاماتٌ أخافت السوريلات وأمَّها. وصل الطبيب، لكن (عالية) لم تنتظر؛ فغادَرَت هذه الدنيا، في رحلة هي الأسرع ما بين ميلادها وموتها...

(عالية)، التي عاشت مبهورةً بجمالها وشبابها وبما تفعله طلَّتُها على الناس،كانت أيامها قصيرة، قصيرة بقدر رغبتها في الحياة، وعشقها للجمال، وحبها لمن يحبُّها ويُقدِّر هذه المنحة التي حباها الله بها، غير أن لقدرها رأيًا آخر فاستعجل سفرها السريع. فما بين لحظة ميلادها ولحظة ميلاد ابنتها، لم يرتَوِ قلبها بعدُ بحُبِّ الصغيرة، ولا حتى بالتطلُّع لملامحها، التي جمَعَت بين حُسنها وحُسن البادية غير المجلوبِ(*).

تماسَكَت (يامنة) -الأمُّ المكلومة، والجَدَّة في آنٍ-، وجلَسَت إلى جانب جسد (عالية) المسجَّى تعاتبها على رحيلها القديم ورحيلها الجديد والأبدي... كفكَفَت (يامنة) دموعها، ووقفَت جدَّةً هذه المرَّة، تبحث بفزعٍ عن (يامنة) الحفيدة... أين هي؟ ومَن تَسلَّمها من غرفة الولادة؟ ولم يَطُل بحثها. كانت الصغيرة غافيةً بين يدي السوريلَّا (دومينيكا)، الشابَّة الوافدة حديثًا من قريتها القريبة من روما...

كانت الطفلة تنام مطمئنَّةً وكأنها اختارت أُمًّا بديلة ولو لبعض الوقت. تعود (يامنة) الجَدَّة لوتيرة حياتها. تخرج مع الفجر وتعبر طرقات درنة، التي تعرف خطواتها جيدًا... تُبادِل الساعين للرزق مثلها التحايا، كلُّ مَن رآها هذه المرَّة لاحظ تكَوُّم شيء ما على ظهرها...

ولم تَطُل الدَّهشةُ. كانت (يامنة) تحمل (يامنة) على ظهرها، وتلفُّ عليها الحِرام بطريقة خاصَّةٍ تعرفها وتتقنها نساء المدينة، ثم تلفُّ جردها حولها، حتى تصل إلى المستشفى فتتلقَّفها (دومينيكا)، التي تُنهي نوبتها ذلك الوقت، وتأخذها معها لحوش السوريلات(**).

تكبر يامنة بين أحضانٍ مُحِبَّةٍ وكثيرة. تعيش نصف النهار بين السوريلّات، تشاهدهنَّ يُغدِقن عليها محبَّتهنَّ وتدليلَهنَّ. تشاركهن المحبَّةَ والارتباط، قلب الجدَّة أوَّلًا، وقلوبهن ثانيًا...

تحملها (دومينيكا) معها لجلب ما يحتاجه حوش السوريلات من السوق، وتستمتع الصغيرة بتدليل البائعين وإعجابهم بجمالها. يُحمّلونها السلام لجَدَّتها، فتضحك وتسير جذلى، مَن مثل (يامنة) ودلال (يامنة) وجمال (يامنة)!...

صار نهار (يامنة) مقسومًا نصفَيْن، وقلبها أيضًا...

تشاهد (يامنة) تدافع الزُّوَّار الدراونة القادمين للتهنئة بعيد السوريلات (الناتالي)(***)، وتشاهد هداياهم وابتساماتهم ومحبَّتهم لها ولهنَّ... تقف بجوار رُكنٍ تحبُّه في مثل هذه الفترة من العام؛ فهو مليء بالتماثيل الملوَّنة (تشبه عرائسها): تمثال للسيدة مريم العذراء ولابنها السيد المسيح، وأشجار النخيل، والكثير من الخِراف والمصابيح المضيئة. تُبهِرها هذه الأشياء، وتنتظرها، وتنتظر الزائرين كلَّ عام...

لم تتوقف (يامنة) الحفيدة عن رحلتها الأسبوعية لبيت والدها في قريته القريبة. يكبر والدها ويكبر أبناؤه من زواجه الثاني، لكن قلبه وحبه لا زالا لها، لـ (عالية) وابنة (عالية). يُغدِق عليها الدلال والحنان. يأخذها من يدها لبيته القديم ومراعي عائلته الكبيرة. تمرح (يامنة) دائمًا وتسعد –طفلةً، وصبيَّةً وشابَّة– بهذا البراح الممتدِّ من قلب (عالية) إلى ربوعٍ أحبَّتها وتعلَّقت بها، وتعود بذاكرةٍ لا تعرف فيها حضورًا لوالدتها إلَّا من صورٍ قديمة وحَكيٍ مُتجدِّد لا يتوقَّف أبدًا، عن سِرِّ ذهول الناس كلَّما رأوا (عالية)...

تُربّت (يامنة) بيدها على أغنام والدها وكأنها تعرفهم واحدة واحدة. ظلَّت على هذا الحبل المتين الرابط بين قلبها وميراث (عالية) وحبِّ والدها وحبِّ أرضها وكل ما عليها من زرع وضرع...

كانت هذه حياة (يامنة)... تعلَّمَت وذهبت للمدارس وتأهَّبَت الجَدَّةُ لمفاجأةٍ ما، كما فعَلَت ابنتها (عالية)... لكن (يامنة) الشابَّة امتلأ وجدانها بحبِّ ما تفعل (يامنة) الكبيرة وما تفعله (دومينيكا) وزميلاتها...

حزمت (يامنة) حقائبها واتَّجَهَت إلى طرابلس...».

---

* غير مجلوب: من بيت شعر للمتنبي: "حسن الحضارة مجلوبٌ بتطريةٍ وفي البداوةِ حُسنٌ غير مجلوب".

** حوش السوريلات: بيتهن وهكذا يسمّيه أهل المدينة.

*** الناتالي: اعياد الميلاد.

عالية (6)

كانت ليلةَ سهادٍ طويلة، أطول من سنوات عمرها كله، أو تزيد. أَوَت إلى غرفتها بعد أن تبادَلَت أمنياتٍ بنومٍ هنيٍّ مع «يامنة» وباقي الصبايا، وبعد أن حضنتها بكل عواطفها الباقية، والمخزَّنة من زمنٍ بعيد. عواطف كان تملأ قلبها، وأحاسيسها تجاه «عالية» و«يامنة» الجدَّة.

تقول «مريم»: «وكأنني شممتُ رائحة المسك، الذي كان يضوع من (عالية) وأمها. كنَّا نعرف مَقدِمَهما لأي مكان؛ فالمسك يتقدَّم خطواتهما، وينشر عبيره فيه؛ فيدرك الناس أن إحداهما قادمة بمفردها، أو أن كِلتيْهما قادمتان معًا».

«ما أعذب هذه السيرة!»... تحكي مع حالها، وتنادي النَّومَ، ولا من مُجيب.

هبَّت نسماتٌ طرابلسية توقظ النائم، فما بالك بمن به سهد. وكان الوقتُ خريفيًّا. وشوارعُ المدينة ساكنة، في صباح يوم جمعة هادئ، لا حركة للناس ولا للسيارات. و«مريم» تُسرع الخطى عائدةً لبيتها. في قلبها مواجِعُ وفرح. وفي جعبتها حكيٌ لن يكفيه يومٌ بطوله. ستخبر بناتها عن رفيقة عمرها التي وجدتها وما وجدتها.

ستحكي عن «يامنة» الصَّبيَّة الجميلة بخلطة البوادي و«الحضور»(*) التي تضيف لجمالها جَمالًا يُبهِر الأنظار ويُحيِّرها، فالملامح والقسمات أوروبيَّة، والملاحَة حاضِرَة، هل هذا نتاج الحب كما يحكون عنه؟

الراعي الوسيم العاشق، و«عالية» المنقادة وراءه وقد هامت به من «غناوة عَلَم» كانت طُعمَ سنَّارته، التي ألقاها في بحر جَمالها فالتقطها، أو جاءته راضِيةً مرضيةً به وبسنَّارته وطُعمه.

تقولُ «مريمُ» إنها آلت على نفسها أن تحيط هذا الجمال وتحميه، وكأنها تخاطب طيفًا –جاء من ماضٍ ليس ببعيد– ينقر على جدار القلب. إنها لي يا «مريم». كوني لها، واحميها من شبابها وغوائل الدهر.

«مريمُ» هي الأخرى عافَرَت الحياة وعارَكتها حينًا، وصالَحَتها أحيانًا. تَرَكَت درنة واستوطنت المدينة الكبيرة، وفتحت بيتها «لهلها»(**) كما تُعَرِّفهم. كل الدراونة «هلها»، وهي خادمتهم. يأتون لقضاء مصالحهم فتستقبل وترحِّب وتخدم بلا منَّةٍ وبودٍّ ظاهِرٍ وغير مُتكلِّف.

تُعايِش المجتمع الطرابلسي بمَظاهِره الآسِرة ومناسباته الطيبة والحزينة. تواسي وتواصل وتُبدي محبَّةً صادقة، فيبادلونها بمثلها، ويدعونها لمناسباتهم، وتُلبِّي. امتلأ قلبها بحبور إضافيٍّ مَبعَثُه إحساسها بالأمان، أمان الجيرة والعِشرة والتوادِّ والحبِّ:

وهل هناك غِنًى بعد هذا الغِنَى؟

كانت تصحب بناتها لهذه المناسبات. وأصبحت «يامنة» ضمن صُحبة الورود والشباب، تُقدِّمها للناس بأنها «ابنتها التي لم تَلِدها». وكانت «يامنة» تُقابَل بترحيبٍ صادق وذهول بهذا الجمال الغريب والمحيِّر.

كثيرًا ما يُصاب الابتهاج المحيط بـ «يامنة» بلوثةٍ ما، فتنسى أنها مجرَّد ضيفة تصاحب مدعوَّةً للفرح، فتتحزَّم بشالها الجميل وترقص، وتبعث طاقةً هائلة في المكان. وينطلق التصفيق والتهليل. وتصل هذه الحالة للمُغنِّية فتتابع حركات الصَّبيَّة المذهلة وتنطلق حنجرتها «ياللَّا آه ياللَّا انتي زولك عالبدر تعلَّى».

ويتمايل الجسد المِطواع بخطواته المدروسة، فلا شيء يحدث إلا بحساب. تضع اليدين حول الخصر وتداعب الفرقة بتحريكه شمالًا ثم يمينًا، ثم تُخفض هذا الجسد اللَّيِّن قليلًا قليلًا، لتنزل بتؤدةٍ، حتى تُلامِس الأرض، وتعيد الحركة، فترتفع بنفس الوتيرة، وتدور دورةً كاملة، فتنطلق الزُّمَّارة في حديثٍ صاخب بين أنغامها والجسد الطري وهذا الرقص، الذي يطلق موجةَ تصفيقٍ وهتاف «حُوتْ الحُوت على الرقاصة واتقول احْويته في طاسة».

هكذا كانت أيَّام «مريم» مع الصَّبيَّة، التي طرأت على حياتها، فبعثت فيها ربيعًا أيقظ سُبات قلبها وعمرها. كانت تخاف عليها من الحياة وضجيجها، ومن شبابها وجمالها، ومن كل خطوةٍ تخطوها في شوارع طرابلس، ولا تعرف «مريم» أين ستتجه بها.

تحاصر الصَّبيَّة؟ نعم، والمسؤولية تحاصر «مريم»؟

نعم، «مريمُ» كتَّفت نفسها بـ «يامنة». و«يامنة» تستشعر هذا الحصار وتعرف أسبابه، وإن كان يقلقها ويكبل خطواتها.

غير أن للصَّبيَّة القادمة إلى طرابلس هدفًا، وتعرف أن الطريق طويل، وأنها لولا هذا القدر الطيب الذي أهداها مريم -وكأنه استحضرها عونًا ودعمًا- لَمَا أمكنها مُصاحَبَة هذه المدينة الصاخبة بالحياة الضَّاجَّة بالحركة، حركة الناس من أهلها، ومن سُكَّانها القادمين من كل فجٍّ عميق، ليشهدوا رزقًا ومنافع لهم وللأجيال التي ستولد فيها وتواصل ما بدأه أهلهم.

«مريمُ» حضنُ «يامنة»، و«يامنة» وديعةُ «مريم». مُعادَلة صعبة تخوضها هذه الممرِّضة، التي عارَكَت الحياة وعَرَكتها، وخرَجَت منتصرةً بقلب جَسور يواجه المصاعب ويهزأ بها. قلبُ «مريم» الفارغ إلَّا من حُبِّ ربيعٍ أطلَّ عليها بزهوره وفراشاته وعطره ونسماته المنعشة. أنعَشتِ فؤاد «مريم» يا ابنة «عالية».

* الحضور: الحَضَرْ أو سكان المدن.

** هلها: أهلها.

عالية (7)
الغريفة

لـ «يامنة» سطوةُ الحُبِّ، ولها ألقُ الحضور. كلَّما حلَّت بمكانٍ أنارته بوهج جمالها، وبقوة التأثير الذي تنثره أينما حلَّت... صار اسمها معروفًا بين بنات المعهد، بل أصبَحَت ضمن قياداته وإحدى أهم مستشاراته في شؤون البنات وشجونهن...

كلُّهنَّ صديقاتها، وهي صاحبة الجميع. غير أن السنوات الثلاث على وشك الاكتمال، ومسارات الحياة القادمة بدأت تتحدَّد، أو يجب أن تتحدَّد. ستنعقد امتحانات التأهيل والإعداد لمهنتهن التي أحببنها، وسيغادرن، كلٌّ لأهله وداره ومدينته...

ويا «عالية» هذه ابنتك حائرة في بيتٍ (في «حدّ الدنيا»(*)، كما تقول الجدَّة «يامنة» المنتظرة عودة جميلتها وبنت كبد ابنتها). «يامنة» الشابة، تتقاذفها الأفكار والأمنيات، وتعصف بها المخاوف والمحاذير، وتقف في غرفتها متأمِّلةً في فراغها؛ علَّ بارقة أمل تضيء إلهام خيالها وعواطفها الفارغة. نعم قلبها لا زال فارغًا، وما استطاعت طرابلس أن تملأَه بما يعينها على يُتمها ويُتم فؤادها الطري...

لم يتبقَّ على الرحيل كثيرٌ من الوقت يا ابنة «عالية». وهذه المرَّة لن تتركك جدَّتُكِ هناك. هي بانتظاركِ، بتعبها، وبثِقَل السنين وقد أكَلَت من عمرها. وهذا الولد (خالك) الذي صار رجُلًا، غير أنه مُتْعَب ومريض وبحاجةٍ للعون، وما عادت «يامنة» قادرةً على توفيره... كل ذلك بانتظارك هناك في «درنة» التي صارت -مع البُعد، وقِلَّة الزيارات- كخيال حبيبٍ تشتاق له، وتخشى انطفاء هذا الوهج إن التقَيَا، وقد أخذ البُعدُ منهما مأخذه...

وبينما «يامنة» في سرحاتها -التي كَثُرَت تلك الأيام- وإذا بطَرْقٍ خفيف على الباب، وطيف صديقتها الأثيرة يقطع عليها هذا السَّرَحان... تسألها «فاطمة»(**) بخفَّةِ دمها المعروفة: «لم يتبقَّ شيءٌ لنا هنا يا بنت! سنعود لحقائبنا نملؤها بأشيائنا ونغادر هذه المدينة». هل يا ترى ستفتقدك يا «يامنة»؟ هل ستفتقدني وباقي البنات؟

كنَّا نسماتِ ربيعٍ أقبلنا عليها من كل مكان، وها هي على وشك أن تودِّعنا عائدات، ليس كما أتينا، وشكرًا لها على كل حال. هل ستفتقدنا يا «يامنة»؟!...

تستدير «يامنة» وكأنها تفاجَأت بوجودها. يا لهذا القلب الذي جرَّكِ خارج هذه الغرفة! حتى إنَّكِ لم تُدركي أن صاحبتك بجانبك، تضحك، وتبكي وتحكي، كل هذا وأنتِ في عالَمٍ آخر...

ما الذي يجري أيَّتُها الشَّابَّة؟ «يامنة»، أتساءل: ما المانع أن تذهبي معي إلى قريتي الصغيرة تتعرَّفين عليها وعلى أهلي؟ سيسعدهم قدومكِ. نحن أهل الجنوب نحب مَن يحبُّنا. أنتِ صديقة ورفيقة ابنتهم، (خلاص) هذا إعلان محبَّة لهم جميعًا، هم وَدودون يا «يامنة» لا تخشي شيئًا، ستجدين أهلًا وقلوبًا نَدِيَّةً كنداوة الصحراء في صباحاتها الطيبة...

تتفاجأ الجميلة بهذا العرض وتقبل! وما المانع؟ تُحادِث نفسها، بضعة أسابيع لن تفسد خطط المستقبل، بل ستزيّنه وتضيف إليه هذه التجربة الجديدة. ستتَّجهين جنوبًا يا ابنة «عالية»، ما الذي يجري على هذا القلب المندفع، تشبهينها؟ نعم، شديدة الشبه، بها وباندفاعاتها غير المحسوبة. تجيبينها بالموافقة ولم تستشيري أحدًا؟ و«مريم» مديرتك الأثيرة والقريبة من قلبك؟ جدَّتك المنتظرة على جمرات الشوق؟ ما الذي تُخطِّطين له؟...

لا قلقَ ولا تَرقُّبَ لرأيهنَّ. هي ترسل الخبر و«الباقي ساهِل»(***). نعم، في عُرفها المتوارَث عن «عالية» لا شيء يستحقُّ التخطيط أو «التخميم»(****)، هي لحظة قد تكون فارقة وقد لا تُشكِّل شيئًا إلَّا من بعض محبَّةٍ ستتلقَّاها هناك من «الغريفة»، وأهلها سيدركون محبَّتها الظاهرة لكلِّ مَن عرفها ستسعد، وستمنحهم سعادة استضافة هذا الجمال وهذا الشباب. لا شيء يستدعي القلق، لا شيء...

حلَّ ذاك النهارُ الذي انتظَرَته الصبيتان، ورافقهما سائق المعهد إلى حيث الحافلة المتجهة جنوبًا. ممرِّضتان في ريعان الشباب تتجهان إلى مسقط رأس «فاطمة»: «الغريفة»...

تراود «يامنة» تلك الأغنية الدرناوية الشهيرة «اليوم يا اغريفة فيك الضي... وفيك ازويل يعزّ عليّ»(*****)، وتبتسم متعجِّبَة! هل كان يعنيني ذلك «الغنَّاي»(******)... وتضحك من حالها؛ فـ «الغريفة» هناك تصغير مُحبَّب للغرفة، أمَّا حيث تذهب فلا تعرف المعنى، هل يعنون الغرفة الصغيرة أم شيئًا آخر؟ مالذي يجري عليك يا ابنة الجمال والتمرُّد، يا ابنة «عالية»؟

---

* في حدّ الدنيا: تعبير شعبي يفيد المكان البعيد جدًّا.

** فاطمة: صديقة يامنة في المعهد وزميلة المهنة فيما بعد.

*** الباقي ساهل: يعني أن لا مشكلة.

**** التخميم: التفكير العميق.

***** "اليوم يا اغْريفة" إلخ...: إحدى أغاني الأفراح الشهيرة في درنة، والمعنى: عودة البعيد وابتهاج البيت بقدومه.

****** الغنَّاي: مطرب الأفراح.

عالية (8)
ابنة عالية...

تهيَّبَت الدخول وقد أصرَّت رفيقتها أن تفعل. تراجَعَت قليلًا، ووقفَت خلف «فاطمة» حتى تُهيِّيء الموقف للقادمة الضيفة، أو لتفتح الطريق إلى سُكَّان البيت وقلوبهم...

دخلت «فاطمة» تجرُّ متاعها، وتساعدها شقيقتها الصغيرة المبتهجة الفَرِحَة بالضيفة الجميلة، الذي زاد وهج الصحراء وَهَجَ جَمالها؛ فتلوَّنَت حُبورًا وابتسامة على شفتي الصبية، وأسرَعَت لتبشِّر بوصولهما، الذي أطلق موجة فرح في بيتهم الصغير، وخرج مَن فيه مُرحِّبًا.

مَن يعرف أهل الجنوب لن يُفاجَأ بهذا الترحيب العفويِّ؛ فالكرم وحُسن الوفادة وُلِد عندهم، ونما وترعرع وانتشر، تحكي «يامنة» مع نفسها –التي زادتها هجمةُ الحبِّ هذه طمأنينةً، وطرَدَت بعض هواجس كانت تخشاها–.

رحَّبَ الجميعُ بها. وقُدِّمَت الأطباقُ والحبُّ والبهجةُ؛ فامتلأ قلبُ الشَّابَّة بالمحبَّة الظاهرة والخفيَّة.

وهكذا مرَّت الأيام و«يامنة» الوَجِلَة تزداد قُربًا منهم كلَّ طَلعة شمسٍ. في كل يوم يزداد هذا الجمال جَمالًا و«رواق»(*)، حتى إنها نسِيَت فِعلَتها، ونَسِيَت تَبدُّل مسارها شرقًا.

أشرَقَت شمس ذلك النهار الصحراوي على ذلك البيت الليبي الطيب، تقول «يامنة»: «كل بيت هنا هو امتدادٌ لبيوت (درنة) و(طرابلس)، بل إن ليبيا في هذا البيت كما في كل البيوت، لا غُربة، ولا اختلافٌ كبيرٌ... لم أرتكب خطأً إذن بهذه الزيارة، بل الخطأ هو تأخُّري بالمجيء إلى هنا. هنا أنا، وهناك أنا، أنا هناك وهنا»...

تكتب كثيرًا هذه الأيام... صفاء الصحراء ونقاؤها حرَّك مكامن الوجد فيها؛ فاندفَعَت ترصد، تبتعد حتى تصل إلى حدود قرية أبيها... وتراه عجوزًا جالسًا أمام بيته، يُصدِر أوامره لولدَيْه –من زواجه بأخرى بعد «عالية»– ولا مُجيبَ لأيِّ أمرٍ؛ فقد تبدَّل الحال به وبهما.

وتُلقي السَّلام على الجدَّة «يامنة»، التي تُرابِط ببيتها وقد استراحت بعد طول طواف بينه وبين المستشفى... تتلقَّى مواليد الدراونة واحدًا بعد الآخر فتسعد بالمشاركة، وتعود مُنهكَةً ومبتهجة وقوية في آنٍ... تراها تقلِّب الأدراج وتبحث في الصور عن وجه مَن فقدَت، «فتسكبُ دمعًا قد جرى من مُقلَتِها بدمٍ»(**)، وتستدرج الصور –واحدةً بعد أخرى–

فيتراءى لها خيال حفيدتها «يامنة» التي حيَّرتها، وأيقَظَت فيها خوفها القديم على ابنتها... وتذهب لـ «طرابلس» تلقي التحية على شوارع تأبَّطَت فيها ذراع صديقة من صديقاتها، وطافتها جيئةً وذهابًا، تشتاق لهذه المدينة البهيَّة العفيَّة.

هذه أيام «يامنة»، وقلبها قلمٌ بين يديها، يُدوِّنُ نبضه كلمة تتبَع كلمة، ينزُّ الحب والشوق وحتى العَتَب في أحرفها. تغلق الدفتر وتجيب صديقتها التي تنادي. أسرَعَتا المسير؛ فالمستوصف الذي ستعمل به «فاطمة» ليس بالقريب، ولكن يمكن المشي إليه. تدخلان فتستقبلهما المسؤولة مُرحِّبةً، وعين الانبهار تتبع «يامنة»، وسؤال الاستفسار عنها وانتظار الإجابة من ابنتهم العائدة من طرابلس الحاملة لشهادة التمريض والمقبلة بسعادة لتخدم أهلها.

لم يمرَّ وقتٌ طويل... ومتى احتاجت «يامنة» لوقتٍ لتُفتح لها القلوب. ضجَّ المكان بالمرحِّبين والمرحِّبات. بينهم طبيب شاب وقف أمام غرفته مذهولًا، فعاكَسَته «فاطمة»: «نحن هنا حضرة الطبيب...»، فانتبه الفتى وتقدَّم مُصافِحًا.

تتوالى الأخبار بعد ذلك، ولا شيء مُؤكَّد. يقولون إن الحبَّ الذي ظهر على وجنات والدتها «عالية» عندما غنَّاها الراعي الشاب تلك الأغنية التي غيَّرت مسار حياتها: «اعزاز وطنهم فاتوه سمعوا نباك جو جاي يا علم» قد ظهر ما يشابهه على مُحيَّا الشابة ابنة «عالية»، ولم تُكلِّف الطبيب نصًّا ليتغزل بها، بل كانت نظرة واحدة. نظرةٌ حمَلَت قلبه إليها، فعانق في نفس اللحظة قلب «يامنة» الفتيَّ الجريء الطائش.

وأخبار أخرى غير مؤكَّدة تقول إنها عبرَت ذات صباح أزِقَّة «الغريفة»، ثم تجلّتْ لها في إحدى زواياها رمال ذهبية، تشبه في لونها لون شعرها –المندفع معها بلا تحفظ من مشاق الطريق أو حتى وحشتها– فتقدمت بلا تهيّبْ لتعرف وتتعرف على الصحراء.. بل إنها استهوت العيش فيها فاستأنست بها ونسيت من ورائها، فابنة عالية امتدادٌ لها، لا تحب الحياة ساكنةً بلا تجدد.

إنه طيشٌ إضافيٌّ كطَيش المحِبّين واندفاعاتهم غير المدروسة، «يامنة» تريد أن تجاور «الواحة»، وتشاهد «الخسوف»، وتشرب من «البئر»(***)، وتلتقي الجنون في الليل... والتي تؤنس مُتخيّليها ومُريديها، وحتى الخائفين منها... تريد تذوُّقَ خبز «الملة»(****)، وتتأمل جبال «الهروج»(*****)، وتعجَّب لسوادها وحكايات الناس عنها... تريد الجلوس هناك متأمِّلةً جمال «الودان»(******)... غزالةٌ تتأمَّل غَزالًا، وفي بعضٍ من جَمالها جَمالُه واكتمال الحُسن فيها وفيه.

يقول مَن يعرفها: «لا تبحثوا عن (يامنة)! اقرؤوا سيرة (عالية)؛ وستعرفون أن (يامنة) الشابَّة هي حامِلةُ السِّرِّ.. سِرِّ الجَمال والاندفاع والاستماع لضجيج القلب وحالاته المريبة»...

---

* رواق: راحة البال.

** من قصيدة للإمام البوصيري. (بتصرُّف).

*** عناوين من أجزاء لرواية الخسوف للكاتب الليبي العالمي إبراهيم الكوني.

**** خبز تشتهر به الواحات.

*****جبال في جنوب الصحراء الليبية.

****** حيوان جميل تشتهر به جبال الهروج.

قطرات الزَهَر(*)

لم يفتح الباب بمفتاحه كما تعوَّد أهلُ بيته. طَرَقه طَرْقًا ضعيفًا، بيدٍ واهنة وجُسَدٍ خَذَل صاحبه. أسرَعَت ابنته لتفتح بقلبٍ متوجِّس حَذِر. راقبَت من العين السحرية، وأدرَكَت أن أمرًا غير طبيعي يحدث. إنَّه والدها، سريع الحركة، قويُّ البنية، يدخل –هذه المرَّة– مُجَرجرًا قدميه، ويجلس على أول كرسي يصادفه في صالة البيت المقابلة للمطبخ، ويشير بيده للسيدة الجميلة،التي تستعجل ابنتها وزوجة ابنها لتجهيز الطعام، ولم تنتبه للدَّقَّات الواهنة، ولا للجالس في الصالة أمامها، يطلب قطراتٍ من ماء الزَّهَر؛ فنفَسُه متقطِّع، ويحتاجه لينتعش ويستعيد قواه.

أسرَعَت للميزانا(**) الكبيرة، ذات الحجم العائلي، بسائلها المبارك، الذي تخزِّنه الأسرة سنويًّا لاستعمالات مُتنوِّعة، كالطبخ، وللطِّبابة أيضًا. أحضَرَت كوبًا وجلَسَت بجانب الرجل، الذي سكن قلبها منذ، منذ...؟ بَدَت وكأنها تحاول أن تحصي سنين رفقتهما، لكنها تجاوَزَت ذلك وسقته ماء الزهر، ثم مسَحَت بمنديل مُبلَّل بالقطرات العجيبة على رأسه وجبهته. وبدرت ابتسامةٌ من الجالس بقربها؛ فهدأ القلب الواجف، وبادَلَته ابتسامة اطمئنان.

«ليس هذا وقته يا حويِّج. أجِّلْ ما تَوَيْتَ، لا زِلنا بحاجتك»... وضحك «الحويِّج» اللطيف، واستكان قلبه العزيز واستعاد هدوءه.

حكى لهنَّ عن «اللي صار»، وكُنَّ ينتظرن تفسيرًا. قال: «كنتُ أُسرِع الخُطى محبَطًا وعائدًا للبيت، وقد تَرَكَت كل شيء، كل شيء ورائي، ويبدو أن القلب الموجوع أثقل خُطاي وهذا ما جرى.

لقد أنهيتُ يومَ مرُاجَعةٍ طويل لمحتويات المحل وللخزينة ولأوراقي المهمَّة، التي كنتُ أجمعها وأضعها بحقيبتي؛ «فلم يعُد المكان آمِنًا»، هكذا نصحني زملائي في السوق. أبلغوني أن الوضع مُريب، ولا ينبئ بانفراجه قريبة؛ فتوجَّستُ ممَّا يجري، واستمعتُ لنصيحتهم. غير أن شابَّين ضخمَيْ الجثَّة كانا أسرع منِّي، اقتربا –وقد فوجِئتُ بدخولهما مكتبي داخل المحل دونما استئذان– وطلبا منِّي تَرَكَ الخزينة مفتوحة بما حوته، ومفاتيح المحل! أخافني الوضع ولم أناقشهما. وتركتُ عُمرًا بأكمله يبعثرانه بعنجهيَّةٍ وسخرية وقِلَّة احترام.

اقترَبَت ابنتُه مواسيةً وسعيدة بسلامته، وقد أخفت حزنها لما جرى، وأعطته رسالةً وصلت في غيابه. فتحها وتأمَّل صورة بداخلها قبل أن يقرأ ما فيها. ابنته التي يحب، والتي اختار لها القدرُ غيابًا طويلًا تخلَّلَته سنواتٌ من العتمة، لم يكن يعرف خلالها أخبارها إلا خلسةً، ودون عِلم السُّلطات. فلا مكالمات ولا زيارات. لا شيء يطفئ لوعة البُعد، ولا وسيلة

متاحة تعلمه بأحوالها. تأمَّل جَمالها وقوة شخصيتها الظاهرة، والتي يعرفها، وارتاح لهذا التطوُّر؛ فوصول صورة منها يعني انفراجةً لا بأس بها –رغم الأخبار الغريبة ورغم ما يجري في المدينة–. باقي الرسالة مَحبَّة وتطمينٌ ودعاء بقرب اللقاء، وهكذا كانت رسائلها بلا تفاصيل. يا لهذا القلب! كم يثقله الشوق والكتمان والصبر!.

عافَر هذا الرَّجُل الحياة طويلًا، مارس مِهَنًا كثيرة... وفي شبابه لم يبخل على نفسه بشيء، يكدُّ في العمل ويستريح ويسافر، يجوب العالم مع أصدقائه المقرَّبين، كانت هذه إحدى مُتَعِه التي لا يفرِّط فيها ولا يتنازل عنها، هذه الرحلات أكسبته ليونةَ طِباعٍ عابرة للمكان والزمان، بل وحتى لمجايليه.

غير أنه لم يحسب حسابًا لهذا الذي يجري حوله. لا والله، ولا حتى دار بخلده. هكذا كان يحكي لنفسه ولمن حوله. يقول: «أصدقائي في طرابلس استبَقوا العاصفة، وربما لأنهم قريبون من موقع هبَّتِها العنيفة. نصحوني، وضحكت من تخيُّلاتهم. في الواقع، لم تكن تخيُّلاتٍ، كانوا قد قرؤوا النوايا، ولم يكن المناخ يوحي فعلًا بالهدوء، كان هدوءً مخادعًا».

تحرَّك في الصالة الفسيحة ذات الأثاث الجميل، الذي أشرف ورفيقته على كل تفاصيله. كان المكان مُهيِّئًا لمرحلة أخرى في حياته خطَّط لها، لكنَّه لم يكن يتوقع أن تجري الأمور بهذه السرعة.

اتَّجه لنساء الأسرة الصغيرة، وأخذ حفيده وسَمِيَّه بين ذراعيه، وتأمل وداعته وجماله، ثم أعاده لجدَّته ووضع في يدها –المشغولة بحمل الحبيب الصغير– نسخةً أخرى لمفتاح محلِّه، فبُهِتَت النساء لما يجري، أمَّا هو ففتح باب الحديقة الخلفية فباغته الهواء البارد فزادت راحته، وأخذ نفَسًا عميقًا، وتبادَلَ مع قطعة الأرض الصغيرة النظرات! كانت تبثُّه الشوق، منذ زمنٍ بعيد، وكان يؤجل الردَّ إلى زمنٍ آخر. لكن يبدو أن ذلك الزمن جاء غريبًا وحثيثًا وسريعًا، أسرع ممَّا تصَوَّر.

---

* قطرات الزَّهَر: قطرات ماء زهر النارنج، وصناعة تقطير زهر النارنج تشتهر بها مدينة "درنة" الليبية.

** الميزانا: زجاجة مُدوَّرة الشكل، بألوان جميلة، وبحجم كبير، تُستَعمل لحفظ ماء الزهر المقطَّر. والكلمة مُحرَّفة عن الإيطالية.

عَمَّتي وتشرشل

غَفْوتُها مُقدَّسة. تلك الأيام لم أكن أملك ساعةَ يدٍ. ولا أعرف كم تستغرق هذه القيلولة المقرَّرة بزمانها ومكانها. غير أنني أدرك –بغريزتي وبحبٍّ يملأ كياني– أنها هناك متمدِّدة، معتزلةً مَن حولها. ومَن كانوا حولها سيعتزلونها خوفًا وهيبةً واحترامًا.

حتى أوقات المرح لديها مُقدَّسة، ولها مواقيتُ يعرفها الجميع، ويحرصون على اقتناصها.،جلسةُ الشاهي الأخضر بعد الغداء. وعشيَّات الصيف الطويلة. وكانت ملكةَ تلك الجلسات. وهل من عاقل يفوِّت هكذا أوقات الشاهي الأخضر بنكهات فصول السنة: ورد وزهر نعنع، أو مرتقوش، أو تفاح «درنة» شتاءً، ولمة صديقاتها والضحكات من القلب.

لديها قفشاتٌ خاصة يفهمنها؛ فتندلع القهقهات وكأنها موجةُ سعادةٍ تغمر الجميع ولا تغرقهم.

غير أن قيلولتها ذلك النهار طالت. وبحُكم قانونها غير المكتوب؛ لن يجرؤ أحدٌ على الاقتراب من حِماها.

حِماها هذا كان «عِلّيا»(*)، وهو مبنى على الطراز الأندلسي، بشرفة مُرصَّعة بنجمات داوود(**) بألوان بين البياض واللون الأخضر الزاهي، تطلُّ على ساحةٍ تتوسَّط البيت الكبير، وغُرَفه السبع، التي تجمع أعمامي وزوجاتهم.

عندما تَلِجُ غرفتها تستقبلك روائح عَراقَة التاريخ، وخصوصية الجغرافيا الكامنة فيها. تنتابك الحيرة من أين يضوع هذا الشيء الذي يصعب توصيفه؟ مِسكٌ؟ نعم، مِسكٌ درناويٌّ قويٌّ ومُسَيطِر بطِيبه حتى على رائحة بخورها المعتاد.

أتحسَّس بأنفي، وبطفولتي الهادئة والعاشقة للألوان وللروائح الدرناوية، التي عشتُ بها وتنفَّستها بملاءة سريري، وفي مخدَّتي وبطانيتي في شتاءات المدينة الباردة، أبحث عن كل هذا في خزنة عمَّتي، وأجدها أقوى وأجمل. أقتربُ من النطع(***) الأبيض الأثير لديها –لكنها لا تبخل به عليَّ، وعليَّ أنا وحدي، رغم كثرة زُوَّارها من صغار الأُسرَة– وأشمُّه بمتعة الباحثة عن الكمال في الأشياء، وهنا وعندها هي يتحقَّق كمال الرائحة، وكأنها غيمةُ مِسكٍ يختبئ شذاها في تفاصيل محتويات عِلّي عمَّتي.

سألَتني مرَّةً: «منَ هو تشرشل؟»، فانتبهتُ للاسم، وسألتُها بدوري: «لماذا؟»، قالت: «نبّي(****) نعرف شكله»...

أجبتها بطفولة الواثق: «توًا نسأل خالي»... وخالي هذا هو مرجعي الأثير في كل ما أحبُّ أن أعرفه في الناس والأشياء.

قال خالي ضاحِكًا: «شنو تِبّي منّه؟»، وابتسَمتُ وأنا أعرف خِفَّة دم خالي وحُبَّه لي: «تِبّيه عمّتي!».

وزاد ضحك الخال، وأجابني بأنه رئيس حكومة الانجليز. فتابَعتُ: «صِفْه لي؟»، فأجاب بضحكةٍ عالية: «سِمِح، عيونه واسعة ووجهه (حَمَرْ)، ويبدو أنه كان أشقرَ في صِغَره». فتساءَلتُ مُجدَّدًا: «يشبه عمَّتي؟»، وواصل خالي ضحكه.

بعد أن اطمأننتُ لحُسن طلعة الزعيم الانجليزي، أخبرتُ عمَّتي، فاستحسَنَت لفكرة أنها تشبهه، رغم سخطها على من شبَّهتها به.

تعرَّفتُ على الرجل بطريقتي، ورأيت له صورًا كثيرة، ولم تعجبني ملامحه. واستغربتُ وتساءلت: «لماذا؟ عمَّتي أجمل منه بكثير».

أخبرتني، ذات مرَّة أنَّ مَن أطلَقَت عليها هذا التشبيه تُنكِر عليها هذه السطوة، التي لها على الناس. سطوةُ الجمال وقوة الشخصية. فكل مَن حول عمَّتي مريدات لها وحَواريَّات، ينظرن لها بحبٍّ وهيبة، ويخشين غضبتها. إن تجاوَزَت إحداهن حدودها وفعَلَت ما يغضبها سيسود الصمت، ولن تجرؤ بنت امرأة أن تشرح وتُفهم عمَّتي أنها بريئة وتسألها العفو.

كيف لها أن تُشبّهها بتشرشل؟ فهو ليس وسيمًا، ولا يشبهها في شيء إلا قوَّة شخصيته وحضوره الآسر.

عمَّتي شقراء، بعينين لونهما بين العسلي والأخضر الفاتح، ووجنتاها شديدتا الحُمرة بلا أي إضافات، لها ضحكة عجيبة. فهي إلى جانب كونها إعلانَ هُدنَة لمن حولها فتسود الأجواء الهادئة المستريحة والحميمية- تُظهِر صفًّا من اللؤلؤ الأصلي العجيب. أقول دائمًا: «لِمَ لا تُبقِي عمَّتي فَمَها مُشرَعًا على هذه اللآلئ الربَّانية؟ لمَ تُقفِله وتشيح بوجهها مرَّاتٍ كثيرة عمَّن يزعجها، وهُم كثر؟».

عمَّتي لم تُرزَق بالولد، وإن تزوَّجَت عدَّة مرَّات.

تقول عمَّتي: «كلَّما خرجتُ وتجوَّلتُ في شوارع (درنة) يأتيني أحدُ رجالها خاطِبًا، وأُهلِكُه انتظارًا ورجاءً، وأتزوَّجه، وأتركه بعد شهور قليلة».

«قلبي مُشرَعٌ»، تُواصِل عمَّتي: «لكلِّ مَن أُحبُّهم، ومَن أُحبُّهم أنتم. وأنا لا أحبُّ غلق باب غرفتي في وجه أحد، ولن يُربِكَني زواجٌ ويُجبِرني على فِعل ذلك».

المناسبات الكبيرة لعائلتنا لا تلتئم إلا بحضورها وقيادتها. فلا فتاة تُخطَب إلَّا بمباركتها، بعد أن تتفحَّص أمَّ الخاطب وأُسرَته، وتتمعَّن في التقاطيع وتقول ضاحِكةً: «خوذوا اللي تجنّسوا منه»!، وتشرح لي بعد أن أستوضح: «يا بنتي أتمعَّن في العين والأنف والمبسم، إن سَلِمَت من العيوب فالذُّريَّة ستكون سمحة(*****)»! ولا اعتراض من أحد؛ فرأس الحِكمَة

عندها. أمَّا البقية فتحصيل حاصل، مهما تذمَّرَت نساء العائلة، أو شبابها، وتضيف: «وصاحب الرزق مطلوب»، ولا أفهم معنى هذا، ولكن أوافق طالما كان هذا رأيها.

عمَّتي كانت ملكةً بلا عروشٍ أو تيجان. وكانت ظريفةً، ولها قدرة هائلة على إضحاك والدي المتَّزِن، بشخصيَّته القوية. كان –أحيانًا– يخشى الحضور في مناسبةٍ تَجمَعُه بها. تقول عمَّتي: «كنتُ أتعمَّد اقتلاع الضحكات منه حتى نرى نواجِذَه، ويخرج مُسرِعًا خوفًا من المزيد، فيفقد السيطرة على اتِّزانه؛ فتظهر شخصية أخرى غير التي تعرفها عائلتنا عنه».

عمَّتي كانت قادرةً على هَزِّ جبال عائلتنا، فتُحدِث زلزالًا يتهاوى أمامه العَبُوسُ والحَزِينُ والرَّزِينُ والهادئُ والكتومُ.

كانت قيلولتها، ذلك النهار، طويلةً... أطول ممَّا يجب(******).

---

* العلّي: العلية في العربية.

** نجمة داوود: كانت زينة للمباني القديمة في درنة قبل أن تصبح شعارًا سياسيًّا.

*** النطع: جلد الغنم بصوفه الكثيف.

**** نِيّي: أريد.

***** العلّي: العلية في العربية.

******كل تشابه بين بطلة هذه القصة وبين عمَّة أحدكم طبيعي جدًّا، فلا يحسب أحدٌ أنني أقصد عَمَّته، أو حتى عمَّتي؛ فلا عَمَّات لديَّ!

«تك تك تك يا ام سليمان»(*)

بغداد... ذاتَ ربيع.

نام الصبيُ عفيًّا ولطيفًا وبهيَّ القَسَمات. وكان منامه هادئًا كعادته، لولا هذا الإصرار على أن يمسك بيدي طوال فترة نومه، فيتجمَّد بدني على وضعٍ واحدٍ لا أُغيِّره؛ حتى لا ينزعج؛ فيحترق قلبي.

غير أن تلك الليلة كانت اليدُ –التي تحضن قلبي– ساخِنةً؛ فانتبهتُ، ومَسَستُ الجبين الوضَّاء، فإذا بلفح اللهب، وإذا بي أقفز إلى الهاتف، وأتَّصِل بأُمِّ عَفراء طبيبة أطفالي، فخفَّفَت عنِّي الخوف –ولها قدرة عجيبة على ذلك– وأمهَلَت الصبي لبعض الوقت، وكرَّرَت: «اعملي كمادات باردة، وراقبي لون شفتيه». ومرَّت الساعات حالِكةً، وأنا أراقب لون الشفاه وأختنق من الخوف؛ فقد حدث ما نبَّهَتني له طبيبته؛ فهرول الوالِدُ فَزِعًا، وأنا أحمل حبَّة القلب، وبي وَجعٌ غير ظاهر؛ فلا أريد أن أُخيف الرجل وقَلبُه لا يحتمل؛ فآثَرتُ السَّكينة الكاذبة.

لم يكن المستشفى بعيدًا. أدخلنا طاقمُ التمريض بسرعة وأجروا اللازم، ونصحوني بالخروج من غرفة الطوارئ حتى لا يرقَّ قلبي لابني، وقد تحوَّل ذراعه لساحة تفتيشٍ وبحث عن وريد يحتمل حَقنَه بسائل، يساعد على اتساع الشُّعَب الهوائية فيسهل التنفُّس.

خرَجتُ لثانية، وسمعت زوجي يحتجُّ على الممرِّضات. فعُدتُ مُسرِعةً، واستبدلنا الأدوار، وتمَّ الحقن في الذراع الصغيرة. ثم! وفوجئتُ بما قرَّروه: الصبي يحتاج لخيمة أكسچين؟! ماذا؟ يا إلهي! كيف؟

احتملتُ ما يجري. ونصحتُ مُرافقي أن يعود إلى البيت. ودخلتُ مع ابني، فإذا بي أمام خيامٍ كثيرة من الأكسچين، في صالة مناسبة للأعمار التي أمامي، وهي متنوِّعة، وكلهم صغار. وكان الصياح يعلو، والأُمَّهاتُ مُنهارات من مقاومة الصبايا والصبية والأطفال لتلك الخيام.

دخلتُ بابني مُتوجِّسة من رِدَّة فِعل الصبي، ابن الستة أشهر المبتسم رغم التعب وألم الذراع، ومنظر الصالة المليئة برفاق الحساسية الربيعية! سألت الممرِّضة «هل عندكم حلٌّ آخر غير الخيمة؟»، فحدجتني بنظرة غاضبة قائلة: «يا عزيزتي يا أمَّ علاء، الحل الآخر لم يحتمله أحد من (الجُهَّال)(**)»، قلتُ لها: «وما هو الحلُّ الآخر يا قلبي!»، ردَّت: «كمامة الأكسچين»، فواصلتُ الإصرار: «لنجرِّب ونرى».

أحضرت السيدة أسطوانة الأكسچين، ومدَّدنا الصَّبيَّ الظريف على السرير وقد ارتاح قلبه قليلًا بعد الحقنة، ووضعت الممرِّضة الكمامة، فحاول إفلاتها، فنظَرَت إليَّ مُعاتِبةً، فطلبتُ منها أن تُحسن الظَّنَّ بي وبابني، فأنا أعرفه جيدًا.

أحضَرَت لي كرسيًّا، وجلستُ بجواره، يدي في يده، وقلبي يجاور قلبه الطري، ويدي الأخرى مُمسِكةً بالكمَّامة، وفمي على أذنه وهو يتملَّص ويعافر، و«تِكْ تِكْ تِكْ يا ام سليمان... تِكْ تِكْ تِكْ زَوجك وين كان، تِكْ تِكْ تِكْ كان بالحقلي... عم يزرع خَوْخ ورمَّان».

سرح الصبي مع الدندنة وارتخى جسده، وما عاد يقاوم الكمامة، إلَّا إذا توقَّفتُ قليلًا لآخُذَ نَفَسي. عندها يعاود تمرُّدَه! ظللتُ على هذه الحالة ليلة كاملة، حتى ظهر علينا الصباح، وأتمَّت الكمامة مَهمَّتها بنجاح، واستعاد المتذوِّقُ الصغير للفن الجميل صحَّته وتَنفُّسَه، بينما يصارع رفاق الغرفة أمَّهاتِهم خوفًا ورُعبًا من خيام الأكسچين.

قبل أن تنهي وَرديَّتها سألتني الممرِّضة: «كيف صار؟ لازم أفهم، احكي يا أم علاء». قلتُ لها: «(فيروز) مَن فعَلَت يا صديقة الملائكة»...

---

*أغنية لفيروز.

** الجُهَّال: الأطفال.

«اغزيل ماشي دُوبْ الدُّوب»(*)

تواصلُ الضغط على المروَد ليزيد سواد الجفون، فيَبرُز لون العينين الزرقاوين. كانت قد طَرَّت قطعة السواك(**) تحت لسانها حتى لانت، فنضح منها اللون الشهيُّ. يحتار القلمُ في وصفه. هو أقرب للَّون البرتقالي المختلط بالبُنِّيّ أو الأحمر الداكن حسب نوع السواك، ومن أي شجرة وبلد جاء. تبتسم للمرآة لتتأكَّد من نظافة اللثة واصطباغها باللون المحبَّب، وكذلك لون الشفة السفلى. بالطبع، تصبغ شفةً واحدة. هذه تقاليد استعماله. ورثتها ونساء المدينة من جدَّاتهن الأوائل.

تقف لتطمئنَّ على التحزمة. اختارت هذه العشيَّةَ حِرامًا حريريًّا ورديًّا، بثوبٍ بنفس اللون، وقد طُرِّزَت وروده الصغيرة بخيوط ذهبية. تحزَّمَت بالحزام الدرناوي الأبيض. ستُبقي طول الحِرام تحت الركبة بقليل؛ ليظهر خلخال الذهب، ترتديه لتُظهِر جَمال ساقيها، وليزيدها فخامة، وليميِّزها عن النساء وليتيح لها الخُيلاء، حينما تتهادى راقِصةً. تعطَّرَت، وتنسَّمَت بروائح البخور تتصاعد من الكانون الصغير، وبمهارة مُكتَسَبة ستتخطَّى المبخرة، جيئةً وذهابًا، فوق الهواء المضمَّخ بألف رائحة ورائحة، فيتشرَّبها الحِرامُ والثوبُ، وحتى مَحرَمة الرأس، ثم تختم بقطعة صغيرة من اللوبان، تضعها بعناية في فمها لتكتمل الوجاهة.

جلَسَت بين السيدات، بعد أن استقبلنها بما يليق بهذه الطَّلَّة المحبَّبة لهنَّ ولها أيضًا.

كم ترتفع هذه الأنا شاهقًا لديها، وكم تعشق ما يجري حين تحضر هكذا مناسبات.

يرتفع إيقاع «الدَّربوكَّة» ويصدح الزَّمَّار، وكأنه يداعب زمَّارته بأنامله لأول مرة. زمَّارة القصب الصغيرة المكوَّنة من قصبتين قصيرتين، يلفُّهما رباطٌ جِلديٌّ مُلوَّن بلون أحمر قانٍ، وتخرج من فتحتيهما قصبتان أصغر حجمًا، مشقوقتان في منتصفهما ليخرج منهما هواءٌ مُنَغَّم بأنفاس العازف، الذي ينفخ أوداجه، ويدفع بالهواء من خلالهما، لاعِبًا بأصابعه على الثقوب الأربعة على كل قصبة، فيصدح بنغمٍ عابِرٍ لحدود الجمال، تُصاحبه أصابع اللاعب على «الدربوكة»، وهنا يحدث المزج الهائل بين الأصوات. لا أحد يعرفه أو يتخيَّله ما لم يكن حضر يومًا عُرسًا يتبارى فيه الجَمالُ بكلِّ ألوانه.

تضغط على الجسد الراقص وحده بلا إرادتها! تحاول تقييده حيث تجلس، لكن بلا فائدة! وها هي تندفع مع أول طلب من الحاضرات أن ترقص.

تتعالى دَقَّات «الدَّربوكَّة» والزُّمَّارة والراقصة، التي تتهادى بين صفَّين من المصفِّقات، يُردِّدن مع المغنِّي: «اغزيّل ماشي دوب الدُّوب... إن طلته عالحيّين انتوب»...

تقف بين الحين والآخر أمام الفرقة، فيفقد المؤدِّي صوابه، ويرتفع الصوتُ لعنان السماء: «حزامك ديريله عالعين... احويته وخميسه وقرين»(***)، وتستمرُّ هي والفرقة بلا مَلَلٍ ولا تعب، حتى يستسلم أحدهم، ويرفع قطعة صغيرة من الحجر يضعها أمامه، بأنه لم يَعُد قادرًا. وقد ترفعها هي إن لم تعُد قادِرةً على الاستمرار.

---

* اغزيل ماشي دوب الدوب: جميل يمشي الهوينا. وهي مطلع لأغنية شعبية.

** السواك: تستعمله النساء لتلوين الشفاه.

***حزامك ديريله...: وتعني المرأة التي تُجيد الرقص ويُخشَى عليها من الحَسَد والعين.

التِّكْرَة– الدنقة(*) (1)

كنتُ أتأمَّل المكانَ، وأُعجبُ كيف يسكنونَه. كنت أراه بعينَيْ طِفلَةٍ. كلَّما وقَفتُ في تلك البياتسا الصغيرة (الميدان) أتوجَّه بوجهي مباشرة لهذا الجبل المرتفع المأهول، يسمُّونه «باطن بو منصور»(**)، تسكن في بعض مناطقه المنخفضة عائلاتٌ من المدينة، وبينهم بعض مُدرِّساتٍ لنا، ولاعب كرة مشهور، وبعض أفراد فرقة موسيقية من الرجال، التي تشارك في الأعراس وتحييها بلا مشاكل ولا فتاوى تُحرِّم أو تُحلِّل. وفيها يسكن مُحبُّو المناطق المرتفعة وهوائها العليل...

أمَّا إذا عرَّجتَ على يسار ذلك المرتفع، وفي الجزء الأعلى منه، فسترى تَجمُّعًا كبيرًا من العائلات القادمة من جنوب السودان، من منطقة «دارفور»(***). يتجمَّعون هناك ويُكوِّنون تجمُّعًا فيما يشبه الجيتو، لكنه ليس مُغلَقًا في وجه جيرانهم في باقي الجبل أو «الباطن» كما هو معروف بـ «درنة»... ربما وصل هؤلاء إلى «درنة» في أعقاب مَجاعةٍ ضرَبَت منطقتهم، عقب الحرب الأهلية، التي اندلَعَت هناك في نهاية القرن الثامن عشر، أو بعد ذلك بزمنٍ طويل... يبدو أن معاناة «دارفور» وأهلها قديمة وليست ابنةَ اليوم...

كنَّا صغارًا، وكانت البراءة تجمعنا. نترك بيوتنا بعد المدرسة، ونلتقي لساعةٍ، نلعب ونضحك، ونتأمَّل الكبار مجتمعين أمام محلَّاتهم، يلعب بعضهم الورق، وآخرون يلعبون «السيزا». وهذه اللعبة تحتاج لرسم مُربَّعات على الأرض، ورمي الأحجار الملوَّنة والتقاطها وفق قواعد يعرفها اللاعبون. كلُّ رفاقي يتابعون هذه الألعاب إلَّا أنا. كان قلبي مُعلَّقًا بهم، يريد أن يعرف مَن هم؟ ومِن أين جاؤوا؟ ولماذا يتجمَّعون ويسكنون هناك وحدهم؟ إلى أن جاء يومٌ سمعنا فيه أن حفلًا سيقام عندهم، وأن الكل مدعوٌّ ليوم «التِّكْرَه»(****)... أردتُ الذهاب، وقوبِلتُ بالرفض، فجاءت عمَّتي فاطمة على بالي، وهي التي تحبُّني ولا تردُّ لي طلَبًا. فأخبرتها وتودَّدتُ إليها وتوسَّلتُ أن تتوسَّط لدى أمي، فقَبِلَت، وأخَذَت يدي في يدها وصعدنا إلى هناك...

كان المكان مليئًا بالناس، بالإضافة إلى قاطِنيه. كانوا في حالة بهجة شديدة وهياج وفرح. وكان الفتية يدقُّون الطبول، وترقص النساء، وتطلق العنان لغناءٍ مبهج، ينشر إيقاعه الفرح، والحبور، فيسري بين الحشود فيشاركون –هؤلاء الأغراب اللاجئون إلى «درنة»– الفرحَ بالتَّصفيق، وحتى بالحركات الراقِصَة...

تمسَّكتُ بيد عمَّتي أطلب الأمان؛ فالحشد كبير، ولم أتعوَّد مثله من قبل. وسرى الخوفُ إلى قلبي، ورجَوتُها أن نعود، فوافقَت. لكنَّ سيدةً سمراء جميلة الملامح تقدَّمَت من عمَّتي طالبةً منها البقاء لحضور توزيع «التكرة»، فوافقَت، وبقينا إلى

أن خفتت الأصوات وهدأت الطبول، فخرجت شابَّاتٌ من أحد البيوت يحملن أطباقًا مُلوَّنةً من السَّعف، في بعضها تتكدَّس قطع من لحم دجاج، وفي الأخرى شيء يشبه الأرز، وليس بالأرز...

كانت الفتيات يُقدِّمنه بالأيدي، على شكل كُراتٍ صغيرة، ونأخذه في أيدينا. يدٌ فيها هذا الشيء، واليدُ الأخرى قطعة لحم دجاج مسلوقة ذات طعم طيب. أمَّا الشيء الأبيض فكان «التكرة»، وهو ما يسمُّون يوم احتفالهم على اسمها...

لا أحد يعرف مصدر التسمية، ربما كانت اسم هذه الوجبة، والتي تعتمد مُكوِّناتها على طحين الأرز وطحين القصب والسُّكَّر وماء الزهر أو الورد... ما يثير في النفس الحيرة، أن تلك المنطقة هي تجمُّع لأُسَر فقيرة لا تملك قوت يومها. ونساؤهم يعملن في بيوت المدينة، فكيف يجتمع كل هؤلاء الناس لديهم، ويتمكَّنون من تقديم الطعام –على بساطته– لكلِّ هذه الحشود؟

لا زالت عمَّتي تقبض على يدي خوفًا عليَّ من هذا التجمُّع الكبير للناس. لكن نظرتها إليَّ، وكأنها تناديني لتُريني شيئًا ما، جعلني أسحب يدي من يد عمَّتي، وأنطلق إلى حيث تقف. صغيرةٌ سمراء، جميلةُ التقاطيع. عربيتُّها غير مفهومة تمامًا، لكنَّ طفولتنا أسرَعَت لتَلضُمَ خيطًا من الحُبِّ بين قلبيْنا، ففهمتها وفهِمَتني...

أخَذَتني من يدي، وأدخَلَتني إلى ما وصفته بأنه بيتهم، وهو عبارة عن حوش كبير مفتوح وبلا سقف. تصطفُّ فيه بشكلٍ دائريٍّ غُرَفٌ عديدة... يبدو أن لكل عائلة غرفةً، هكذا بدا لي... أدخَلَتني غُرفةً بلا أثاث إلَّا من قِطَع كليم وبعض «النُّطُعَة» وملابس مُكدَّسة هنا وهناك، ولا مكان للعبة أو تسلية. فزَعلتُ لصديقتي الجديدة: كيف تعيش بلا لعبة؟ ليتها تعرف أُمِّي؛ لصَنَعَت لها عروسةً كما تصنع لي ولشقيقاتي. كانت أمي تخيط جسم «البامبولا»(*****) ثم تحشوها صوفًا، وترسم على الوجه العينين والحاجِبَيْن والأنف والفم، وتُطرِّز كلَّ ذلك بألوانٍ مناسبة، وتُلبِسها ثيابًا تشبه ثيابنا، وأحيانًا مثلها. وعَدتُ صديقتي أن أُعطيها واحدةً من عرائسي... وبينما نحن نحكي إشارةً، تتبعها بعض كلمات، سَمِعتُ صوتها مناديًا.

يا إلهي! عمَّتي!... خرَجتُ مُتردِّدةً ومُشفِقةً على نفسي ممَّا سألقاه... رأيتُها جَزِعةً ومُتوعِّدة، ونالني ما نالني منها، ومع ذلك التفتُّ لصديقتي، التي لا أعرف اسمها، وأشرتُ لها بأنني سأعود بالعروسة.

لم أَعُدْ، ولا أهديتُها إحدى عرائسي! أخلَفتُ بوعدي بلا عذرٍ، إلَّا من غياب عمَّتي، التي رحَلَت دونما استئذانٍ من مُحبِّيها؛ فغلَّف القلبَ الصغير حزنٌ لم يألفه، حزنٌ لغياب القلب الكبير، وحزن لأنني لن أفي بوعدٍ لصديقةٍ صاحَبتُها ذات احتفال في باطن «بو منصور».

* قصة قصيرة من جزئين، نُشر منها هذا الجزء (الأول) بصحيفة "ميادين".::

** باطن بومنصور مرتفع جبلي يقع في أهم احياء مدينة درنة.

*** المعلومات الواردة بخصوص سكان هذا المرتفع من أهل دارفور ومكونات (التكرة)حصلت عليها من الأستاذ الجامعي والباحث الأستاذ عبدالله بودرباله وأوجه لحضرته جزيل الشكر والشكر موصول لزوجته الصديقة العزيزة سليمة ارحيّم.

**** الدنقة إسم آخر ليوم التكرة وهي كلمة تعني دق الطبول والابتهاج.

***** البامبولا: كلمة إيطالية تعنى العروسة التي تلعب بها الفتيات.

التِّكْرَة– الدنقة (2)

وقفَت تلتقط المشهد البانوراميَّ المحيط بالشرفة الممتلئة بالصغيرات، والشابَّات، والنساء الكبيرات في السِّنِّ، ثلاثة أجيال أو لنقل أربعة –إن جمعنا معهنَّ أطفالَ العائلة – يتبادلن الحديث، وينظرن بقلقٍ لنقطةٍ بعينها في البراح الممتدِّ أمامهن. أمَّا حفيدتها فأسرَعَت إلى العدسة لتقبض على لحظةٍ تريدها ولن تفلتها هذه المرَّة...

كان البيتُ الصغيرُ مزدحمًا. والمناسبة: مأدبةٌ تقيمها إحدى سيدات العائلة للقادمة –بعد طول غياب– لهذه المدينة الطيبة المهمومة. يتناثر الحبور بين القلوب فتنتعش، ويقبل الجميع على الطعام الشهي والأحاديث المتشابكة. هذه تحكي عن قصص وَلَديْها مع مدارسهم، وأخرى عن عشق ابنها لمفاتيح السيارات –على صِغَر سِنَّه– تقول: «كان يُمَيِّز موديل السيارة بنظرةٍ لمفتاحها»! الولد صغير، فكيف ومتى عرف كل هذا؟

واحدة تفتح حافظةً بلاستيكيَّةً وتفاجئ القادمة الغالية بـ «الشماري»(*) فتقفز من مكانها، وتلتقطها مُلوِّحةً بثمرتها تُريها لحفيدتها الصبية، وتتبعها بصيحة: «انظري، هذا ما حكيتُ لك عنه، ورسمتُ لك صورته، وقارنتِه لي بالثمرة الأمريكية، فرفضتُ المقارنة. ها هي، تأمَّلي وتذوَّقي خيرَ طبيعتنا في (الجبل الأخضر) وعلى تِلال (البيضاء)». تقترب الصبيَّةُ وتشارك الجدَّة الجَذلى فرحتها، وتشكر الخالة على هذه النِّعَم، وتَكَبُّدِ مشقَّة إحضارها سعادةً وابتهاجًا بهذه الزيارة التي طال انتظارها...

ينتيهنَ من الطعام، وتُدار أكواب الشاهي الأخضر المنَكَّه بالنعناع والزهر، وتتواصل الحكايات عن الدنيا وماذا جرى بها بعد زواجها، وتركِها لمدينتها وغيابها الذي طال، وطال كثيرًا... تتأمَّلُ صورًا مُعلَّقةً على الحائط، صورها من ضمنهم؛ فصاحِبةُ البيت تحبُّها، وتحبُّ طَلَّتها وجمالها وحنانها، ومَحبَّتها الظاهرة للجميع، وهي تبادلها المحبَّة والمشاعر العميقة والقلق على صحَّتها، وعلى بقائها وحيدة بلا رفيق، أو وَلَد. كانت تودُّ لو صاحَبَتها العُمرَ كلَّه. لو سافرَت معها لبلاد الله التي زارتها، واستمتعَت بها. كل هذه الأمنيات كانت مستحيلةَ التَّحقُّق، لكن شبابها ونَزَقها هو ما دفعها يومًا لتعرض على صاحبة المكان أن تبقى معها بعد زواجها، فكانت السيدة تُرَبِّت عليها ضاحكةً: «لا زِلتِ صغيرةً يا فتاة، ولا زال قلبُكِ طريًّا، وأحكامك وطلباتك مُضحِكَة»، فتغضب منها ولا تَردُّ...

هي اليوم في ضيافتها ومعها نساء العائلة: شقيقاتها وبنات أعمامها وأولادهنَّ، غير أن الأجواء ليست نقيَّةً تمامًا... كانت الغيوم الداكنة تلفُّ المدينة، وتنذر بقادمٍ مُبهَمٍ وغير مُتعيِّن، لكنَّ عوارِضَه كثيرة وتحدث بين الحين والحين، والناس في

حيرة...

تقول إحدى الجالسات: «ليلة أمس لم نَنَمْ من أصوات الرصاص، كنَّا نسمعه عن بُعدٍ ويُرعِبنا؛ فلا أحد منَّا يعرف مصدره، ولا مَن يعارك مَن». سرى بعض قلق، ماذا يجري، ولماذا؟ غير أن صاحبة الدَّعوة لم يُسعِدها هذا الحديث، وواصَلَت الاحتفال بالقادمة الغالية. وها قد حان وقت حبيبة القلب طبق «المثرودة»(**) الذي تتفنَّن السيدة في إعداده ولا ينافسها عليه أحدٌ في تلك المدينة... ضغَطَت على الضيفة أن تتناول منها، كما عهدتها في شبابها، غير أن العمر والبُعد والقلق فعل فِعلَتَه، فأنهك البدن، وأصبح يعمل بنصف طاقته.

حاوَلَت أن تشرح ذلك للمولِمَة، لكن بلا فائدة، فالحِلفان على أشدِّه، والتهديد بالزعل إن لم تُلبِّ رغبتها قائمٌ؛ فأذعَنَت وهي تعرف الضريبة التي ستدفعها مُرغَمةً... وجاءت بعدها أكواب شاهي العشيَّة مُعطرَّةً بالورد الدرناوي، وبوَنَسِ قلوبٍ مشتاقة، وبها توقٌ لمعرفة أخبار هذه القادمة بعد طول غياب. «لا جديد في سيرتها»، هكذا حَكَت، «جرى علينا ما يجري على الناس في هذا البلد، فتحنا بيتنا، وحاولنا أن نعيش كما يعيش غيرنا، غير أن لمن يحكمنا رأيًا آخر؛ فآثرنا الابتعاد؛ فبلاد الله واسعة، والعبور إليها سهل، وهكذا حدث... أنجبنا، وكبر أولادنا، وتزوَّج مَن تَزوَّج، وأصبحنا جدودًا، وبينكن حفيدتي... حفيدتي التي تراقب المكان مذهولة»...

الصَّبيَّة تحب مسقط رأس جدَّتها؛ فهي تعرفه من حكاياتٍ كانت مُقرَّرةً عليها كلَّ يوم تقريبًا. تعرف الوادي، وتعرف جبال «درنة»، وتعرف «الفتايح» و«المغار» و«الجبيلة»، و«سوق الظلام» وحواريه البديعة، وتتخيَّل اندفاعَ الماء المبارَك من الشلال إلى الوادي، في مساره نحو البحر منذ آلاف السنين، يبثُّ الخير على ضفتيه، وتقطنُ حوله عائلات عزيزة ومعروفة...

كانت الجَدَّة تقول لها: «نحن أهل (دَرنَة) نعرف بعضنا بعضًا، وبالاسم)! فتبتسم الصَّبيَّة مُدَّعيةً تصديقها، فتؤكِّد لها ما تقول، وتواصل الصبيَّةُ الابتسام. ما زالت المأدبة متواصِلةً، تتخلَّلها الحكايات والضحكات وبعض همهمةٍ هنا وهناك. طرقٌ على باب البيت وجارة تدخل.

هي صديقة قديمة لصاحبة البيت. ممرِّضة في المستشفى الوحيد في المدينة، يقولون إنَّها تعمل –بالإضافة للتمريض– بتجارة مُربِحَة، ولما استفسَرَت العائدة بعد غياب، عرَفَت أنها كانت تخيط اللَّفَّات الضخمة من الشاش الطبي، وتصنع منه فُوَطًا ومماسِحَ للبيوت! ابتسَمَت مُستغربةً هذه التجارة المشبوهة، ولم تعلِّق...

جلَسَت السيدة، وحَكَت هي الأخرى عن ليلة سهادٍ وعملٍ طويلة في المستشفى، فقد أُحضِرَت جثَّتان لشابَّيْن من المدينة، والكثير من الجرحى. تقول: كان جَسَدَا الميِّتَيْن مثقوبَيْن بالرَّصاص، والجرحى يعانون النزيف من جروحٍ ما رأت عينها مثيلًا لها منذ اشتغالها بذلك المكان. تقول: كانوا يضمِّدون الجراح ويأتي مَن يُقيِّد هؤلاء على أسرَّتِهم بالأصفاد...

انزعَجَت العائدة بعد الغياب الطويل، وتركَت الجلسة وتوجَّهَت إلى الشرفة، حيث سبقها إلى هناك قريباتُها وبناتهنَّ وبنات بناتهنَّ. كانت حفيدتها الصبية من بينهنَّ، فتوجَّهَت إليها واضعةً يدها على كتفها مُحتَضِنةً وموجِّهةً نظر الصغيرة وعدستها لنقطة بعينها هناك، في «باطن بو منصور» المواجِهَة للشرفة مباشرةً، مالت بالصبية يسارًا إلى مكانٍ تعرفه، وإلى بيوتٍ لا زالت كما هي، وقد خَلَت من قاطنيها.

ثمَّة بيت بعينه أرادته في قلب العدسة، أرادت أن تقبض الصبيَّةُ على اللحظة، ثم تعيد لجَدَّتها المشاهِد. تتساءل: لِمَ هذا المكان؟ فتجيب الجَدَّة: «كانت هناك صديقة من (دارفور)، كنَّا طفلتَيْن، صداقتنا دامت ساعة من الزمان أو أقل. لكن يا طفلتي، حتى وإن هزمنا المكان والزمان، لا زالت ثمَّة خفقة في القلب تخصُّها... أتفهمينني؟». وتبتسم الصغيرة ابتسامة مجاملة.

---

* الشماري: فاكهة برية زهرية اللون توجد بالبيضاء والجبل الأخضر.

** المثرودة: نوع من الحلو وتشتهر به "درنة" وشرق ليبيا.

«فحمة التاقزة»...

بَدَت علامات الريبة على وجهها. لم ترتَحْ لهذه الزيارة، ولا لهذا الطلب، ولا مِمَّن يطلُبَنَهُ، لكنها لم تردَّ في حياتها طلبًا لأحد، فكيف إذا كان هذه المرَّة من «شبابات»(*) يحاكين القمر وطلَّتَه على الدنيا في ليالي الصيف وأُنسها؟... تجربة جديدة؟ لِمَ لا؟ فلتَخُضْها...

تعرف أمَّهاتهنَّ، ومواعيدهن في العشيَّات الطويلة، لذلك الفصل الجميل. و«مقعد الشاهي»(**) وصحبتهن اللطيفة وأسئلتهن الكثيرة والمتنوّعة حسب الحال: هذه تسأل عن بناتها وحظِّهنَّ، وأخرى عن نتيجة امتحان ابنها، هل ستفرح أم ستغتمُّ كما يحدث دائمًا؟ أمَّا السؤال الحائر والمتداوَل عادةً فتعرفه، وكثيرًا ما تكون متأهِّبةً للإجابة المجهَّزة بعناية امرأة خبيرة بأحوال النساء: فلان وفلان وفلان –أزواجهنَّ– يحفظون العهود والمَوَدَّة، أو –وآه من أو هذه– لو أنها نطَقَتها أو أوحَت بها...

كانت تجمع كلَّ «حَبَّات التاقزة» في يديها المضمومتين، وتقرّبها لفمها، وتَتَمتِم بصوتٍ خافِتٍ فيسود الوجوم وتزداد حالة التأهُّب والترقُّب، ودقَّات القلوب الواجفة المنتظرة. أمَّا هي فتسعدها هذه الهيبة التي تكتسبها من هذه الحركة...

لا أحد متأكِّد ممَّا تقول، لكن الجالسات حولها متيقِّنات أنها ربما تُردِّد بعض آيات من القرآن، أو بعض أذكارٍ، أو أدعية. غير أن مَن يعرفها جيدًا سيشكُّ في هذا؛ فالسيدة لا تفكُّ الخَطَّ، ولا تعرف القراءة. ليديها الخبيرتيْن حركة تحفظها عندما تلقي «حبات التاقزة»، تُخفِي «الفحمة» ببراعةٍ وحِرَفيَّة في باطن كفِّها، وحالما ترمي بالحَبَّات، تُلقي الفحمة بعيدًا عن باقي الحبوب، وخارج نطاق قراءتها؛ لتوحي لهنَّ أن لا خطر يحوم في الأفق؛ فتنفرج الأسارير ويُقبِلنَ على الشاهي والكاكاوية، وخبزة التنُّور، والكعك الدرناوي الشهير المصاحِب عادَةً لهذه الجلسات، الواقعة بين العصر وقبيل المغرب. فلا يصحُّ عند الأذان واختلاط ساعات النهار الأخيرة ببعض ظلامٍ قادم في الأفق أن يَكُنَّ خارجَ بيوتهنَّ؛ فالمشاغل كثيرة وتنتظرهنَّ: الغسيل على الحبال ولا يجب أن يبقى حتى ينزل عليه الطَّلُّ فيُغيِّر رائحته الزَّكيَّة، تجلبها خلطات المسك و«الزرقينة»(***) التي تُضفي على بَياض الملابس الليبية الرّجاليَّة لونًا لطيفًا (بياضٌ مُشْرَبٌ بزرقة خفيفة)، هكذا كان ذوق الناس في ذلك الزمن الجميل والطيب...

تسيطر على مُريديها ومُريداتها بقطعة صغيرة من الفحم. تلعب بها كما تشاء وكما تحدِّد من أهداف. إن رَغِبَت في بَثِّ قليلٍ من القلق حرَّكَتها إلى وسط كفَّيْها المطبقتَيْن على «التاقزة» وألقتها، فتَصدُر شهقات من الجالسات، وتزيد في

حالة الحيرة. فترفع أكمام ثوبها زيادة في بَثِّ الوهم والخوف، وتُخفِض رأسها وكأنها تقترب مُوبِّخةً هذه الفحمة وما فعَلَته في صويحباتها...

تلتقط البضاعة كلَّها، وتعيد خلطها بين كفَّيها، وتقرِّبها من فمها وتهمس بتعاويذها، أو بلا شيء؛ فلا أحد يعرف! تتلمَّس بباطن كفِّها فحمةَ «التاقزة» لتعيدها لصوابها على طرفَيْ اليدين، وتلقي «تاقزتها» مُجدَّدًا، فتبتعد قطعة الفحم، ويجلو الحال، وتنقشع الغيمة؛ فتُهلِّل صاحبة الطلب، وتعود الأجواء الصاخبة، وتتصدَّر بطلتنا الجلسةَ الطيبة من جديد، وقد امتلكتهنَّ جميعًا...

تنفضُّ الجلسة. ويتبادلن المحبَّة والمواعيد القادمة، ودعوتها للبقاء مع إحداهن حتى الصباح، فبيتها بعيد، و«الصباح رَباح»...

في ليالي الشتاء الطويلة، تضيف إلى مهنتها الأصلية موهِبةً أخرى، لكن دون مقابل. أمرٌ آخر مُحَبَّبٌ لكل أهل البيوت الذين يُسعَدون باستضافتها؛ ستتناول عشاءها مع مَن ستنام عندهم، وتجمع «تاقزتها»، تُحصيها حبَّةً حبَّة. بعض حبَّاتٍ كبيرة من الملح والفول وأصداف بَحريَّة وأزرار ملوَّنة لا يعرف أحدٌ لِما تَرمُز، وخرزٌ مُلفِتُ اللَّون، ثم وهي القطعة الأهم «فحمة التاقزة»، القطعة الوحيدة التي لا أنيس لها، مُتفرِّدة بلونها ورمزيَّتها، التي يخشاها الجميع؛ فهي إن توسَّطَت الحَبَّات كانت نذيرَ شؤمٍ. وإن اقترَبَت من إحداها كان الهمُّ على الأبواب، قد يدخل، وقد يبقى خارجها، حسب درجة اقتراب الفحمة من بقية الخرز والحبوب. وإن جاء مكانها خارج دائرة الحبَّات انفرَجَت أسارير الجميع وساد السرور الجمعَ الطيب، المنقاد لزمنه، بكل ما فيه من بساطة وأوهام، تسيطر وتُعشِّش، وتجد القبول عند الكثيرين والكثيرات...

ستضع عدَّتها المباركة في جِرابٍ أحمر اللون، وتلفُّه بعناية، وتودعه تحت الثوب، في منطقة الصَّدر مباشرة، يحجزه ويمنعه من السقوط حزامها الملوَّن الجميل، الذي يلتفُّ حول خصرها، ليظهر لباسها المكوَّن من الثوب ذي الكُمِّ الواسع، من قطعتين من قماشٍ مُلوَّن يبدو للناظر، وبقية الثوب قطعة من البوبلين، أو القطن الناعم، يُناغِمُ لونُه لونَ الجزء العلوي منه، لكنه لا يُرى؛ فالرِّداء (الحِرام) لا يُظهِره، فسيلتفُّ على البدن، ثم تُلفُّ حوله «القَشْطَة»، أو الحزام الأبيض لسيِّدات المدينة، والملوَّن للقادمات من المناطق التي تلتفُّ حول «دَرنة»، كما يلتفُّ الحزام على خصر نسائها...

ستبدأ السَّردَ المحبَّب بذِكر رسول الله، فتُصلِّي وتُسلِّم عليه وعلى صَحبِه، وتُرسل حُبَّها لمن حولها –نساء وأولاد الأسرة– وتختار حكاية أو اثنتين من رصيدها الذي لا ينضب («نقارش»، و«شمس اطياح» و«امنا الغولة»، و«احميدة بالسلطان»، و«النسري والياسمين»، و«سبع صبايا» و«عويشة بنت الحوَّات» و«عين تاجرنا عين مرا»، وغيرها، الكثير، والطَّريف)(****).

يسود الجالساتِ الصَّمتُ الكامِلُ إلَّا من شهقاتِ خوفٍ، أو إعجاب، أو حنق وغضب، على شرِّ ما احتوته أحداث الخَرَّافة، أو ضحك متواصل إن اختارت خرَّافةً مليئة بالصور المضحِكة (كوميديا، بمصطلحات هذا الزمان)...

ينفضُّ الجَمعُ وقد نام نصفه، ويتمنَّون لها ليلةً طيبة. وتتمدَّد هي على «الطَّرَّاحيَّة»(*****) التي تجلس عليها -يوضع عليها نطعٌ في ليالي الشتاء الباردة- تتغطَّى ببطانية أهل البيت «الجربية»(******)؛ «كبارة»(*******) للضيفة وقدرها العالي: أليست هي مَن تحتفظ بأسرار البيوت وترسل بـ «تاقزتها» رسائلَ اطمئنانٍ أو تحذيرٍ، أو حتى خوف وتوجُّس لأهلها؟ بل إنها كانت برَميَةٍ واحدة من فحمتها قادرة على خلق إعصارٍ داخل هذه البيوت، أو ترسل بها نسمات هادئة تُنعِش النفوس وتحييها بعد موات...

هكذا كانت تعيش أيامها. لا شيء يزعجها، ولا جديد يغيّر من مُعطَيات حياتها اليومية، إلا ما حدث ذلك النهار: دقَّ باب بيتها، وليس من العادة أن يزورها أحدٌ، كانت هي مَن تبادر وتعرض خدماتها بمقابلٍ مادِّيٍّ بسيط ومعنويٍّ كبير ويعنيها كثيرًا؛ فهي تحظى بمكانَةٍ في القلوب الواجفة، التي تقع تحت سيطرة حبَّات «تاقزتها» وسطوتها. فتَحَت مُستَفسِرةً عمَّن يكون الطارق، فأجابتها صبيَّةٌ يافعة أن «نحن يا خالة»؛ فزاد استغرابها، وأسرَعَت تفتح بانزعاجٍ وقلَق. كنَّ بالباب فَتياتٍ في أوج الصِّبا، الذي يدقُّ أبواب الشباب وجماله وعنفوانه ورعونته... تعرفهنَّ جميعًا؛ فهُنَّ بناتُ النساء اللاتي تزورهن وتمنحهن بركَات «التاقزة» وأخبارها...

ما الذي يجري! «كنكن(********) ياك لا حرّ لا شرّ؟»(*********). تساءَلَت بلكنة هي مزيج من لهجة أهل المدينة ولهجات المناطق حولها... رددنَ مُجتَمِعات: «ما فيه شي يا عمَّة،بس نبُّوا نعرفوا بختنا»! (**********)

---

*شبابات: الصبايا غير المتزوّجات.

** مقْعَدّ الشاهي: جلسة شاي.

***الزرقينة: مادة زرقاء اللون تذاب في الماء في آخر مراحل الغسيل الأبيض فتشعُّ بلونٍ يميل إلى طيفٍ ازرق جميل.

**** أشهر الحكايات التي سمعناها من جداتنا في "درنة". استعَنتُ بشقيقاتي وبعض الصديقات لتسمية عناوين "الخرَّاف".

***** الطراحية: تشبه الفِراش -لكنها أصغر حجمًا- للجلوس عليها.

****** البَطَّانيَّة الجَربيَّة: بطانية عالية القيمة منسوجة على النَّول، حمراء اللون بخطوطٍ خضراء وزرقاء جانبية.

*******كبارة: تقديرًا وتكريمًا.

********كنكن: ماذا بِكُنَّ؟

********* ياك لا حرّ لا شرّ: أو لا سو لا سويّة: المعنى واحد... وهو التساؤل بجَزعٍ هل من سوءٍ ما.

********** (ملاحظة): هذه الحكاية هي نتيجة صور تتداعى أمام ذاكرةٍ مليئة بحب تلك المدينة التي تمتلك قلبي، لم أقصد بها شخصيةً بعينها، ولا نسجتُ هذه الحكاية وعنيتُ بها أحدًا بعينه. إنها رؤيتي لما عشته وعايشته وأحكيه بقلمي، وببعض خيالٍ لا بُدَّ منه؛ لتكتمل شروط القصّ.

(الوادي جا)(*)
(درنة 1 و 2 أكتوبر 1959)

ثمَّةَ حركة مُريبة وغريبة تحت سريرها. طبقٌ يتحرك، وشيءٌ ما يُحرِّكه، وصوتُ مَضغ طعامٍ، أو هكذا تخيَّل عقلها الصغير. كانت قد غفت بصعوبةٍ، بعد ليلةٍ بيضاء، أنار البَرقُ فيها سماءَ المدينة، وأعقبته الصواعق تضربُ في كلِّ مكانٍ، والرعد كان ألطفَ لا شكٍّ. ليته كان رعدًا فقط. هذه الصواعقُ تُرعبُها، وها هي توقظها من جديد، فتكتشف أن غرفتها بها زوَّار فتُصاب بالرُّعب، وتبحث بينهم عن أُمِّها، لن تفقدها هي الأخرى، بعد أن غاب أبوها منذ الظهيرة ولم يَعُد.

تقترب الأمُّ وتربِّت على الطفلة المرعوبة، وتحكي لها ما حدث، فتُشفِق الصغيرة على ضيفاتها الجالساتِ حول سريرها، وفي غرف البيت الأخرى، والضيفة الغامضة التي تتسلَّى تحته. تخبرها بنت الجيران «ذهَبّ»، أن بيتهم قد أغرقته الأمطار. وأنَّ «وادي درنة» يزور المدينة، إذا ضاق وعاؤه (مجراه) وفاض، وأن والدتها قد فتحت بيتها لـ «ذهب» وقطَّتِها وأهلها، ولغيرهم من الجيران، ممَّن زارهم هذا الضيف الثقيل. إذن «ذهَبّ» جاءت ومعها قِطَّتها، التي اندفعت تطلب الدفء تحت سرير الصغيرة وتتسلَّى بإزعاجها، وإقلاق منامها في هذه الليلة الطويلة.

كانت المدينة –ومنذ الصباح– تحت قصفٍ مُرَكَّز من السَّماء بكل أنواع الصواعق، والرعود، والأمطار الشديدة، وكأنها «خيطْ مالسما»(**) كما يصفها أهل «درنة» ذلك اليوم. نعم، وكأنه خيطٌ من الماءٍ، يسكب خيره من السماء إلى الأرض بلا توقُّف، حتى فاضت الوديان حول المدينة. «وادي درنة»، الذي يندفع بقوَّةٍ قاهرة من ثلاثة اتجاهات، ويتَّخذُ طريقه إلى البحر عبر منطقة الوادي، ومنطقة «سيدي بو منصور»، التي يندفع من تِلالها، لتتحوَّل المدينة إلى بحرٍ مندفع بلا توقُّف من الجبال، مُختَرِقًا شوارعها، مُغرِقًا بيوتها، جارِفًا معه كل ما ومَن جاء في طريقه.

كان والدها غائبًا من الظهيرة، أخبر أُمَّها أنه سيطمئن على جراج قطع الغيار، الذي يمتلكه على شاطئ البحر بالقرب من الميناء، ويعود، لكنه لم يَعُد. مرَّ النهار بأكمله وعمَّ الظلام ولا زال غائبًا. لم تُبدِ أمُّها أيَّ خوفٍ أمام أهل بيتها. كانت تُردِّد: «سيعود... سيهدأ المطر ويعود»... لم يَعُد، والليل في منتصفه، وأصوات سيارات الجيش والإسعاف تتجوَّل وتحذِّر، وتحاول عمل شيء، ولكن، كان من المستحيل مواجهة غضب الوادي. مَن يجرؤ على الوقوف في طريقه؟ ذلك الهادر بصوتٍ يُسمَع في كل بيوت «درنة». كانت مياهه بلون الطين، بلون قشرة الأرض التي صادَفَتها أو اعترضتها فاكتسحتها، بل اقتلعتها وجرفتها. مساحات واسعة من الأراضي ذات اللون الطيني المائل للحُمرَة الشديدة الخصوبة حول

المدينة، اندفعت مع مياه السيول إلى مجرى شديد الانحدار، لتشكِّل النهر الأحمر الطيني المندفع من الأعلى مُخترِقًا الوادي الذي يقسم المدينة إلى نصفين.

كان الصغار في زياراته القديمة الهادئة يرحِّبون به وهم عائدون من مدارسهم، وتستبشر المدينة خيرًا بمروره الكريم، حامل الماء، المبشِّر بموسم خير وعطاء. أمَّا هذه الزيارة فلا. لم تكن خيرًا، بل دمار وموت وفَقْد.. مَن شاهد أمواجه العاتية أصابه الرعب، وولَّى هاربًا على غير هُدى، ومَن كان حظُّه عاثرًا، وجاء في طريقه حمَلَه إلى البحر، وراح ولم يُعثَر له على أثر. قيل إن المياه دفعت أسلاك الكهرباء معها، وأنها تحوَّلَت إلى حقل كهرباء قاتل. هل هذا تفسير ما جرى لعائلاتٍ عزيزة فقدتها المدينة تلك الليلة الليلاء؟!

ربما، وربَّما قوة اندفاع المياه هي التي حملت معها البيوت بساكنيها. كانت المياه المندفعة تحمل معها الصخور الضخمة، حتى إن إحداها أغلقت إحدى فتحتَيْ الجسر المعروف، والذي كان الناس في شتاءات المدينة يقفون عنده، مُطِلِّينَ على الوادي يتأمَّلون اندفاع المياه الحمراء الطينية، أمواج تدفع أمواجًا، يشاهدونها والبرد يضرب أوصالهم، فتمنحهم هذه الطبيعة العجيبة دفئًا غير مفهوم!

هذه الصخرة التي سدَّت فتحة واحدة جعلت المياه تندفع عند خروجها من الفتحة الأخرى بقوة وتجَبُّر، وبصوتٍ مُرعِب.

في سنوات الأربعينات حمَلَت هذه المياه معها في طريقها إلى البحر عددًا من الدبَّابات الألمانية، التي كانت تتمركز في الوادي الجاف، قيل إن جبروت الوادي هزم دبَّابات «روميل»(***) وحملها إلى المياه الزرقاء واختفت هناك.

كان بيت الصغيرة بعيدًا عن المصبِّ القاتل، لكنَّه ليس بمنأى من الخطر؛ فهو في طريق المجرى الثاني والأضعف. كان يندفع هو الآخر، ويهاجم البيوت، فلا يرحم قاطنيها، فيخرجون يطلبون النجاة فقط، تاركين كل شيء. بيتها –وبحُكم حالته وارتفاعه عن مستوى المياه– امتلأ بالفارِّين؛ فلا ملجأ اليوم لهم من الوادي إلا هو. انتصف النهار وهدأت المياه، وتلفَّت أهلُ المدينة لبعضهم يتفقَّدون غُيَّابهم برعبٍ، من هَوْل ليلتين، داكِنَتَيْ السَّواد وما جرى فيهما... كانت عائلات ميسورة الحال تسكن بجواره وتنعم برؤية الزائر اللطيف في أيام الشتاء، لكنها ما تخيَّلَت أن يتحوَّل هذا الضيف إلى قاتلٍ قاسٍ، فيأخذهم معه إلى البحر –«الذي قد كان جارا»(****)–. مَن جاء لينقذ احتاج هو الآخر لمن ينقذه. ماءٌ طيني هادر وظلامٌ حالك وأنينٌ يُسمَع في الأرجاء، ولا مغيث. حلَّ الصباح وتناقلَت النَّاسُ أسماءً عزيزةً غادَرَت أثناء رقادها.

شارع الصغيرة عاد أهله إليه، من البيت الذي كان مأوى لهم، ليحصوا خسائرهم وما حلَّ بممتلكاتهم. أمَّا صاحبته وأطفالها، التي أمضت ليلة طويلة بين خيالاتها المرعبة وخوفها على الغائب، فقد انبلج صباح رمادي مبلَّل بالطين، الذي غمر الأنحاء، غير أن شمسه أشرَقَت عندما فُتح الباب وظهر صاحب البيت مُبلَّل الثياب وفي وضعٍ صعب، وحكى ما جرى معه، فقال إنَّه بعد أن اطمأنَّ على مكان رزقه، وأراد العودة، فوجئ بموجٍ يأتي إلى البحر من داخل المدينة. موج أحمر

ومياه كثيفة تحمل حطام بيوتٍ كانت عامرة، فتراجع الرَّجُل واحتمى ببعض أشجارٍ، ولم يقترب من سيَّارته التي تحرَّكَت مع الأمواج إلى البحر القريب...

ظلَّ الرجل هكذا تحت البرد والمطر والأمواج الهادرة. بين بحرٍ تَلوَّن بلون الطين وموج الوادي المندفع بلا توقُّف، حتى ظهر الصباح، وتراجَعَت حِدَّة الأمواج، فغامر بالعودة.

حلَّ صباحٌ لم ترَ المدينة له شبيهًا. كان الناس يمضون بوجوم وبحزنٍ يملأ القلوب مستشعرين الفقد الهائل الذي أصابهم. كانت شوارع المدينة المصبوغة باللون الأحمر الطيني تنظر بأسى لنسائها يمضين وَحِلاتٍ يرتدين «الجرود» الناصعة البياض بوجوههنَّ الحزينة، وعيونهنَّ الدامعة، وأصوات النواح تُسمَع في كل البيوت، يبكي عوائل بأَسْرِها، جرَفَها الوادي في زيارة ذات خريف...(*****)

---

*"الوادي جا": مقطع من أغنية كان يُردِّدها الصغار في "درنة" أثناء لعبهم، تقول: "الوادي جا.. ويريد عشا.. ويريد ابنيَّة مالزنقة"...

** "خيط مالسما"هكذا تُنطَق باللهجة المحلية.

*** قصة الدبابات الألمانية شتاء 1941.

**** "الذي قد كان جارا": من قصيدة للشاعرة سعاد الصباح.

***** جزيل الشكر للأستاذ عبد الله بو دربالة، وزوجته العزيزة سليمة ارحيم.

القمح إيحَمَلْ(*)

«خشّوا لجيهة القمح، وخَطَوا جيهة الشعير. القمح عودَهْ قوي ويتحمّل تدّويركم. احترموا الارض ولما تلقوا القعمول(**) قصُّوه من وسط ساقه مش من الجذر، بيش ما تقربوش الزرع وما تقربوش القعيميلات الصغيّرات، بيش تلقوهن إنتو والّا غيركم في زردة(***) أخرى. عمّتكم سالمة عطتكم لذن تخشوا أرضها قولوها اسلمتي».

هكذا خاطَبَنا عمّي الكبير المهيب، ذو الطَّلَّة الأنيقة والحضور الطاغي بوسامته الظاهرة. له شارب يخالط اللحية فيزيد الوجه وقارًا وزعامةً. نعم، زعامةٌ آسِرَة وليست قاهرة. كانت الزَّردة في «وادي بنت»(****)، ربما كانت التسمية لأن أرض الوادي المنبسطة حوله، الحاضنة لمجرى نهر جافٍ، تشبه فتاةً مغناجًا ترتدي أثواب الفرح. كل موسم له ثوبٌ وزهور وجمال نعرفه، نحن روَّاد هذا المكان الأثير الحاضن لطفولتنا المرحة المنطلقة. تتغنَّج أرض «وادي بنت» لزُوَّارها بأزهارها الملوَّنة، بين الأصفر والبرتقالي والبنفسجي والأحمر القاني، وحتى الوردي. أيُّ جَمال وأيُّ دلال! وفي الأرض الكريمة أيضًا أعشابٌ نعرفها بأشكالها وبأسمائها، ومنها: «الغَرَنبوش»، و»كريشة الجدَّي. لم نكن نعرف معنى أو سببَ هذه التسميات، لكننا نعرف طعمها ولذَّته، في مكانه وفي أرضه على وجه التحديد، وكأن خيطًا ما يمتدُّ ما بين أرضٍ وهَبَته وبين أفواهنا، فنستشعر الطعم المبارك، وكأنها تقول «هو لي ومني، وأنتم أيضًا...».

كانت السيارات القادمة من «درنة» كثيرةً ذلك الصباح، تحمل أعمامي وزوجاتهم وأولادهم، ومعنا ابنة عمّ أهلنا، لكننا لا نناديها إلا بالعمَّة؛ فلم نكن نعرف بعدُ أنها ليست شقيقتهم، لم يَقُل لنا أحد، ولم نسأل، ولا نريد أن نعرف؛ فنحن نعشقُ حضورها وزعامتها. هي الأخرى لم تحظَ بالوَلَد، غير أنها تعوِّض ذلك بحبّنا وحبّها لنا...

توقفَت السيارات، وكان بالقرب منَّا مجموعة خيام آهِلَة، وكان الأمر طبيعيًّا؛ فهم يُخيّمون حيث المرعى وحيث الأراضي، التي يشاركون أصحابها زراعَتَها والعناية بها وجَني محصولها. كانت الأراضي الزراعية في «درنة» شحيحة؛ فيستغلُّها الدَّراونة في زراعة خضرواتهم اليومية، أمَّا المحاصيل المهمة، كالقمح والشعير، فمكانها على مُسطَّحات زراعية مرتفعة حول «درنة» شرقًا وغربًا. هذه الخيام إذن... يعرف أهلها أن سكان المدينة يعشقون الطبيعة من حولهم، ويزورونها بأُسَرِهم. يجمعون القعمول في موسمه. الغرنبوش وكريشة الجدي وتفاح الجبل والزعتر البري والكليل، وحتى ثمار الشماري المنتشر على سفوح الجبل الأخضر –البيضاء والغابات من حولها–. من أهل هذه الخيام الطيبة: خالتي «سالمة»، التي خرجت من خيمتها، وحيَّت الجمع الكبير بـ «مرحبًا» جميلة، و«تفضَّلوا» من القلب... هكذا استشعرها كلُّ مَن تجمَّع حولها ليردَّ التحية والسلام والمحبة، التي انتشرت في الأنحاء، بفعل هذا الودِّ الظَّاهرِ والخفي...

أصرَّت أن يدخل الجمع إلى خيمتها، فاندسستُ بينهم لأتأمَّل، ولأعرف كيف يعيش الناس في بيوتٍ من صوفٍ مَجْدول ملوَّن بألوانٍ زاهية. أذهلني المكان؛ كانت المقاعد العالية الدائرية –ربَّما كانت أَسِرَّةً لأسرة الخالة سالمة– مُغطَّاة بالبطاطين الحمراء (الجربية) التي يعرفها أهل تلك المناطق، هذه البطاطين المنسوجة على المسداة، بخيوطٍ صوفيَّةٍ يغلب عليها اللون الأحمر، ومُزيَّنة من الأطراف بخطوطٍ طولية خضراء وزرقاء وبيضاء (كان أطفال درنة يُغطُّون بها عند إصابتهم بـ «النمنم»!، ولا تفسير عندي لهذه الظاهرة أو العادة القديمة)، أمَّا الأعمدة فملفوفة بأردية مخطَّطة بهيجة الألوان. وعلى أرضية الخيمة سجاد قديم ونظيف وزاهٍ، وحوله «نُطُعة» بيضاء تحكي علاقة هذه الأسرة بقطيعها: يومٌ ترعاه ويوم تأكل منه لحمًا طريًّا... سقتنا لبنًا طيِّبًا لا زال طِيبُ طَعمه باقيًا وشاهِدًا على كرم أهل تلك الخيمة وصاحبتها خالتي «سالمة». أطلَقَت السيدة العنان لعواطفها. وحَكَت عن المدينة التي تحبُّ. وقالت: «نابيدي نحْدّرْ(*****) مرتين في الجمعة. انحطّ شكاوي اللّبَن على ظهر الحمار ونحَدّر مع جاراتي، نبيعولكم اللّبَن والزبدة والقعمول وتفاح الشاهي والكليل والزعتر، ونروحوا بمونتنا من دكاكينكم، طيبَك عَرَبْ(******).

«العَرَبْ اليوم جايين بروحهم للقعمول واللّبَن ياحاجّة»، هكذا خاطبها عَمّي، فأجابت مستبشرة: «خَطَو الشعير ودوروا في لأرض اللي احذاه، القمح إيحَمَل». انطلق الصغار بنات وأولادًا مُتَّخِذين كبيرهم دليلًا؛ حتى لا يُفسدوا الفسحة بخطأ غير محسوب، كأن يدوسوا على شتلات القمح التي تتلمَّس طريقها نحو السماء، تعلو بسيقانها وتتهيَّأ لحملها المبارك. تظهر لنا بين الحين والآخر نبتة القعمول فنتفرَّس في حجمها؛ لنتأكَّد أنها مناسبة، ولا تزعِّل عمَّنا إن جلبنا المحصول الصغير فنكسر تعليماته.

يمتلئ الحمل بالنبتة الطيبة رغم أشواكها، ونعود، تقودنا أنوفنا إلى حيث يجتمع الكبار حول موقد الشَّاهي، وأطباق الجبن والزيتون والبيض المسلوق والكعك وخبز التنُّور المعطَّر بالكمون الحلو والزهر، لكنَّ للخالة «سالمة» رأيًا آخر، فما إن جلسنا حتى وصلت أطباق كبيرة، ووضعتها بيننا، كان للمثرودة حضورٌ رفيع تسبقه روائح البركة، سمن الخراف وحليبها مع الثريد المخبوز في التنور، والعسل يصاحب الصحن المملوء بخير «وادي بنت».

يا أيُّها الوادي الذي مرَّت عليه خطانا ذات يوم، أَزْهِرْ بكل ألوانك الزاهية، وهيِّئ المكان للأطفال وأهلهم يأتونك من كلِّ فَجٍّ عميق، ينشرون الحبَّ، ويبحثون عن سيدة كانت تقطنك، واسمها الخالة «سالمة»... لا بُدَّ أن قلبها تَزيَّن بسنابلِ القمح والشعير، التي كانت تخاف عليه، وتوصينا ألَّا تقسو أقدامنا على الأرض من حوله... تقول: «القمح إيّحَمَل والشعير ساقه ضعيفة عينكَمّ منَّه...».

---

* إيحَمَلْ: عوده قوي.

** القعمول: الخرشوف البري.

*** الزردة: الخروج في نزهة في الطبيعة.

**** نِبّي: أريد.

***** انحدّر: النزول إلى المدينة.

****** طيبك عرب: تقال في مدح أهل المدينة.

ذات خلوة على ضفاف التيفري

أخَذَت الصَّغيرة بيدها لتعبر الطريق المزدحم. تحرَّكَت بها مُسرِعة، وهذا طبعها المتوجِّس دائمًا: مَن يدري؟ قد ينطلق أحدهم ولا يعبأ بالإشارة الضوئية فتضيع البنت وتضيع هي أيضًا!

امرأة حمقاء؟! لا ليس إلى هذا الحدِّ... موهومة بالخطر الداهم حتى وإن لم يوجد؟! نعم هي كذلك، حتى في أوقات سكونها وراحتها وتأمُّلها. ينتفض بدنها بلا مُقدِّمات لمجرَّد صورة تقفز أمام أوهامها لأحد أولادها يسقط، أو يلامس خطرًا ما، فيتبدَّل حالها، وتُفسِد لحظاتها المقدسة، والتي في العادة لا يجرؤ أحدٌ على إفسادها بالدخول عليها أو حتى بطَرْق الباب...

عَبرَت الطريق ووقفَت أمام كشك بيع الصحف، وقلَّبَت بعضها. تأمَّلَت أغلفتها الزاهية، بصور النساء والرجال والمصايف والمرح. هكذا بَشَرٌ لا بُدَّ أن تكون صحافتهم واجِهَتَهم، ومِرآتُهم المرحَ في كل مكان، والرِّضا أيضًا. مَن خلَقَهم أبدع وأتقن؛ فخطوط الوجه مُتناسِقة ومنسجمة، ومقاييس الجَمال لا تحتاج لعينٍ ثاقبة لتدركها، والأبدان سليمة لا اعوجاج ولا انبعاج، والسيقان منفلتةٌ من الثياب، لتُبدي الرضا بما وهَبَ الخالق الذي لم يغفل عن التفاصيل فأبدع وصوَّر... يقولون في مدينتها الصغيرة(*) في باب توصيف الجمال: «البيت رواق والمرا ساق»(**)!

ستشتري لصغيرتها مجلَّةً تُناسِب سنَّها، وتشتري هي صحيفة «لاريبوبليكا» ومجلَّة خفيفة، تسعفها في تعلُّم لغة أهل هذه البلاد... عادت إلى البيت، بعد أن أرضت مزاج الطفلة وتركتها مع والدها. وجاء موعد الصغير لنقله للحلَّاق، أيُّ تعب ينتظرها معه! فهذه ستكون التجربة الثانية بعد أن فشلت تجربتها الأولى، فالصَّبيُّ لم يتوقَّف عن طلب المقصِّ من الرجل ليقصَّ شَعره بنفسه، فكلَّما بدأ الرجل عمله يلتفت الصغير ليلتقط المقصَّ، فتخاف عليه، ويخافُ الرجل، وتتأجَّل العملية لموعد نُضج الصبي، أو حتى يستشعر الخوف منها إن غَضبَت وقرَّعَته! نزلَت من المبنى، وبعد خطواتٍ قليلة دخَلَت به إلى محلِّ الحلاقة، وكان الوقت صباحًا أو بداية النهار، أجلَسَت الصبي إلى جوارها في انتظار موعدهما، وتابعَت خبرًا عاجِلًا على ما يبدو، على القناة الأولى الإيطالية، وكانت صورة السيدة الجميلة، الأميرة والممثِّلة السابقة «جريس كيلي» تُغطِّي الشاشة والمذيعة الباكية تنقل خبر مقتَلِها في حادث سيارةٍ تقودها ابنتها الصغيرة «ستيفاني». هَمهَمَت الجالسات بأسًى والرَّجُل أيضًا. امتلأ قلبها بالحُزن على هذا الجَمال الآسِر الذي اختفى بين حُطام سيارة ابنتها المسرِعَة...

ما علينا! تستمرُّ الحياة ومَطالِبُها، ومن بينها حلاقة شَعر الصبي. نجح الحلَّاق هذه المرَّة. وخرَجَت سعيدة بالنتيجة، وقبَّلَت الصغير الذي يحبو على أعتاب الحياة عتبةً... عتبةً... عادَت به هو الآخر إلى بيتها، وجلَسَت تتابع الحدث

الرهيب على شاشة التلفزيون، وتأمَّلَت هذه الحياة التي أعطت لهذه المرأة كل شيء، وفي ثانية أخذتها هي، فتركت كل شيء، كل شيء!

انتاب قلبَها الشابُّ بعضٌ من هواجسَ لا تفارقها، فحاوَلَت أن تهرب منها ومن الحدثِ نفسه، وقرَّرَت الخروج هذه المرَّة وحدها... توجَّهَت لضفَّته المجلَّلة بالمهابة فحوله جمالٌ ودلالٌ وغنجٌ وتاريخٌ ممتدٌّ يسلِّمه جيلٌ إلى جيل... أخذت كُرسيًّا بجواره، فهي تريده لها... فاليوم ستغيِّر مكان الخلوة اليومية مع نفسها لتنقلها إلى ضفاف «التايبر» (il tevere)) (***).

ستزوره هذا اليوم وحدها، وهذا ما قرَّرَته وما أرادته. تعرفُ مياهه اللطيفة الهادئة المتدفِّقة منذ الأزل، الهاربة في مسارها ومبتغاها من منبعها في جبال «توسكانيني» إلى المكان -الذي تعرفه هي وتحبُّه-، هل سترسلُ محبَّتها أم عتابها أم الاثنين معًا؟ «لا هذا ولا ذاك»، قالت لها نفسها، «أرسلي صورًا لا تحبِّينها؛ وهكذا يختلطُ الماءُ بالماء فتتوارى بينه، بل ربما يلتقطها سابحٌ أو سابحة على شواطئ المتوسط العامرة فيتأمَّل ويُعجَب، أو يبتسم ويتركها لمسارها الطويل، فتدفعها موجةٌ إلى شاطئ آخر، أو ربما تغمرها مياهه العميقة وتمضي بها إلى شاطئ بعيد تعرفه على ضفاف الأطلسي، وربما سيتعرَّفُ على صاحبة الصور فيرسل سلامًا لامرأةٍ مرَّت ذات يومٍ من هناك، وها هي تتذكَّره بصورةٍ. فيبتسم ويقبل الهدية، ويتعجَّب لمسار الأيام وتصاريفها»...

تصاريفُ الأيام؟ نعم، تصاريفها العجيبة، وإلَّا ما الذي جاء بهذه المرأة وأجلسها بجانبها لتقتحم خلوتها، وتَحول بينها وبين النهر المستغرق في مساره، لا يأبه بمن يقف أو يجلس أو يتأمَّل؟ «سمعتكِ تتكلَّمين بالعربي، فاندهشتُ وتوقَّفتُ عن المشي، واندفع قلبي قبلي نحوَك!»، هكذا خاطَبَتها بلغةٍ إيطاليَّة ناعمة! تردَّدَت المرأة المختلية بذاتها، وتوجَّسَت ممَّا سَمِعَت، هل صحيح أنها كانت تتكلَّم بالعربي؟ ووحدها؟ أي أنها كانت تحكي مع حالها؟!

تساءَلَت، وتابَعَت: «والله ما صدَّقتُ! لولا وقار السيدة وكِبَر سِنِّها، فأيقنتُ أن خلوتي يحدثُ فيها العَجَب». جَلسَت بجوارها، امرأة ستينية، ببشرة سمراء داكنة وهيبةٍ لا يخطئها القلب. قالت: «أنا من ليبيا»، فأربكتها المفاجأة! وهمَسَت: «تُفرِّقنا أقدارُنا يا سيدتي وتجمعنا ضِفافُ نهر «التيفري»!، هكذا حدَّثَتها نفسها غير المنزعجة من الضيفة، التي استضافها القَدَر وأحضرها إليها حيث تختلي!

تندفع الكلمات سريعةً، وتواصل السيدة حَكيَها: «أنا من (تاورغاء)... هذا ما قالته لي أُسرَتي الإيطالية، التي آوتني وعطَفَت عليَّ وربَّتني وأخَذَتني معها، عندما عادت لروما بعد الحرب... أسموني (فاطمة)، ولا أعرف هل الاسم لي منذ ولادتي أم أنهم اختاروه عندما تبنَّوني. لم أهتم بهذه التفاصيل، ولم أسألهم، ولا أحبُّ أن أعرف. عشتُ مع ولدَيْهم كعيشتهم تمامًا. أحببتهم؛ فلا أعرف غيرهم، فأنا أُدين لهم بكل لحظة محبَّةٍ وهبوها لي... أنا الآن أُربِّي أحفادهم، وأعتني بهم وكأنهم منِّي، وبي حنينٌ يا ابنتي لأرضٍ لا أعرفها، لكنني أتعلَّق بكل شيءٍ فيها ومنها... كنتُ مع نفسي أتمشَّى على ضفاف هذا النهر، وسمعتُ صوتك، ولكنتك ففرح قلبي وانتعش...».

تَمَلمَلَت الهاربة إلى ذاتها في جلستها بين مُرجِّبةٍ بضيفةٍ جمعها هذا النهر بها وبين حيرة ألجَمَت لسانها وأعجزتها عن تفسير ما جرى. هل الصور التي رمتها في النهر وحملتها مياهه سلَّمها هذا النهر لهذه السيدة ابنة «تاورغاء» الإيطالية، فتأمَّلَتها وتوهَّمَت أنها سمعت صوتها وحكيها، وهي في الحقيقة سمعت بعض حوارٍ حوته صورٌ قديمة تخلَّصَت منها تلك المرأة المختلية بالنهر، لكنها عادت إليها من جديد تحملها هذه المرَّة سيدة ليبية من «تاورغاء»، صادَفَتها ذات خلوة على ضفاف «التيفري».

---

* "درنة".

** مثل يوجز الجمال ببيت هادئ وامرأة جميلة.

*** نهر "التيفري" أو "التايبر" في روما.

سي عوض المسلماني

نجلس حول قنطرة الساقية، في عَشيَّات الصيف الطويلة، لنتأمَّل جريان مائها الرقراق ونلمسه بأيدينا، ذلك الذي يمضي ومعه أيامنا. كل لحظة فيه ليست هي، ونحن الشهود على حالاتها، لكننا لسنا بالقابضين عليها... هي تنزلق من بين أيدينا لتعود لمجراها. لا تأخذ منَّا إلَّا صدى ضحكاتنا، وربما أسعدها حالنا، لكنها لا تتوقَّف عندنا؛ لأن كينونة الحياة في جريانها، هكذا منذ الأزل، ورزق الناس معقودٌ ببرَكتها. هي تعرف مجراها الذي شُقَّ لها وتَخبُره جيّدًا... تنزلق أرجُلُنا في مياه الساقية، لكننا نحافظ على جلستنا، حولها نسعد بالطَّراوة والنَّداوة التي تَهَبُنا إيَّاها، وبهداياها لطفولتنا الطيبة. كنَّا نحضر معنا زجاجات المربى النظيفة ونملؤها بالماء، ونجلس حول القنطرة متأهِّبين لحركة ما بين فتحات مُحدَّدة في قاعها غير العميق؛ إذ لا يبلغ عمقه إلَّا نصف متر. في تلك الفتحات نشاهد رؤوسًا صغيرة جدًّا، وأحيانًا لا نرى إلا ذيولًا تتراقص مبتهجة بنعيمها الدائم.

يوجد بيننا دائمًا مختصٌّ بسحبها وإهدائها لنا، فنسلمها لزجاجاتنا مباشرة، فتتلوَّى وكأنها تلوم حرمانها من المأوى والماء الرقراق الجاري من حولها. نتجمَّع ونُحصي كنوزنا من هذه المخلوقات. كنتُ دائمًا أحصل على العدد الأكبر! لِمَ لا؟ ومَن يبحث ويجمع ويهدي هو ابن عمي، فلا بُدَّ إذن من احتكار المحصول! وهكذا تمتلئ زجاجتي الصغيرة، لكنني –وفي بعض الحالات– أهبُ بعضها لضِعاف الحال مِمَّن ليس لديه قريبٌ يجمع هذه المخلوقات المرِحَة!

نكمل الجلسة ونسعد بوقتنا ونستعدُّ لمغادرة المكان، وقبل أن نفعل نعيد كلَّ ما حصلنا عليه من صيدٍ إلى مكانه لتستمرَّ دورة الحياة. كنَّا ندركُ بفطرةٍ نقيَّة أنه لا حَقَّ لنا في التمسُّك بها أو أذيَّتها. ستسمَّر هذه المخلوقات العجيبة في مكانها، وقد تتجوَّل مع الساقية تحت المدينة وتكبر،وتتلقَّفها أيادٍ أخرى لها فيها مآربُ لا نعرفها... حدَّثَتني فيما بعد –وبعد أن كبرنا– صديقة فلسطينية، كانت تقيم بالمدينة، أن جيرانها اللبنانيون يقتنصون هذه المخلوقات بعد أن تكبر، ويقيمون الموائد وتتصدَّر سيقانها أطباقَهم الفاخرة! ترك لهم الاستعمار الفرنسي الكثير والجميل، إلَّا أكل سيقان الضفادع!

هذه الساقية، التي تجري في مجرًى ممتدٍّ تحت سطح المدينة، تتجمَّع مياهها من «عين سيدي منصور»، وتنحدر مع التلال، وتواصل اندفاعها مخترقةً المرتفعات في وضع الهبوط من المنحدر، لتندفع في مجراها المبارك في منظومة ري عرفتها «درنة» على أيدي الأندلسيّين أو الموريسكيّين، الذين قَدِموا إلى المدينة بعد خروجهم من الأندلس... لم تكن المياه تندفع هكذا في مسارات مفتوحة، بل كانت أغلب مساراتها تمرُّ تحت سطح المدينة بشوارعها وبيوتها، ولها فتحاتٌ تُسمَّى «القناطر»، تفتح في أيام سقاية سوانيها المتوسِّطة المساحة بالطبع.

كان لكل منطقة رجلٌ يُنظِّم هذه العملية يُسمَّى «وكيل الساقية»... نعرف وكيل ساقية شارع «الكوي»، ونخشاه، بل ويصيبنا الرُّعبُ إن مرَّ قبل أن تَرِدَنا إشارةُ إنذارٍ باقترابه. يرتدي دائمًا معطفًا من القطن الثقيل، لونه أزرق، وبيده عُكَّاز يساعده في المشي، وله فيه مآرب أخرى! تتواتر عنه الحكايات. يقول بعضها إنه كان يهوديَّ الديانة ثمَّ أسلم. والتصقت به كنية «المسلماني» لهذا السبب...

له شاربٌ عظيم يقف عليه الطير، ولحية مُهذَّبة دائمًا، وتقاطيعُ صعبة التحديد وإن غَلب عليها القسوة والغضب أو هكذا كانت تراها طفولتنا. لعكَّازه سطوة على الأرض، التي يمشي عليها «سي عوض»، يسبقه دائمًا بمسافة نصف متر؛ فيزيد المشية وجاهةً تحبس الأنفاس، وينقر به على الأرض بحركة نعرفها ونهابها... تُحدِث هذه الملامسة صوتًا مخيفًا يسبق خطوات الرجل، فيتشتَّتُ جَمعُنا ونهربُ من أمامه لا نلوي على شيء... لن يسمح لنا «سي عوض» باللعب في الساقية؛ فهو يخشى علينا من المخاطر. لم نكن ندرك خشيته هذه إلَّا بعد أن جرى ما جرى...

كانت قريبتي الصغيرة تخرج من بيتها، كلَّما عرَفَت أنني مِن بين مَن يلعب حول الساقية وفي مياهها... شقراء، شَعرها طويل يكاد يلامس ركبتيها، صغيرة السِّنِّ والحجم، دقيقة الملامح، بعينين خضراوين وأنف صغير وجميل وشفتين لا نعرف كيف يمرُّ الطعام من بينهما، جلَسَت سعيدةً مُنبَهِرةً بما نفعل ومتلهِّفة على اقتناء صغير الضفدعة في حالته الأولى. كنَّا نُسايِرُها ونعطيها ممَّا نملك ثم نعيده معًا للمياه بعد أن ننتهي من لعبنا ونستعدَّ للعودة... وقفنا تلك العشيَّة، حين حان وقت العودة، وتلفَّتنا نبحث عنها فلم نجدها... سرى الذُّعر بيننا ونادَينا باسمها ولا مُجيب... أحدنا صرخ: «الساقية»! وساد الرُّعبُ والخوفُ والبكاء: كيف ستخرج حيَّةً، وأمامها أمتارٌ طويلة مُغطَّاة، والقنطرة التالية أمام بيت الصَّبيَّة الصغيرة، ولا نعرف إن كان هناك شِباكٌ تحت الأرض لتهدئة اندفاع الماء أم لا، وإن كانت هناك شباك فستضيع الطفلة...

جرينا ننادي ونصرخ على الكبار لنجدتنا، وما هي إلا لحظات حتى بانت لنا الخصلات الشَّقراء تسبق جسد الصبية؛ فاندفع أحد الكبار لالتقاطها ورفعها من أقدامها واندفعت المياه من فمها فتنفَّسَت وصرَخَت؛ فتعانقنا فرَحًا، غير أن صفعةً سبقتنا إليها من أمٍّ منهارة، ثم حضن وبكاء، وانقلب المكان بين الفرح بسلامة الصغيرة والتهديد والوعيد لنا جميعًا...

للساقية ومياهها التي كانت تمدُّ مدينتي بالبهاء والخضرة وبالحياة، ولسيدي «عوض المسلماني» -وكيل ساقية شارع الكوي، رحمه الله-، ولرفاق عُمرِنا، بنات وأولادًا، ولعُمرٍ قضيناه لا نعرف إلَّا محبَّتنا ورفقتنا وحنوَّ أهلنا... لكلِّ هذا، وكثيرٍ غيره، أرسلُ محبَّتي لمدينتي، ولمن أَحبَّها، والتمس لها العُذرَ ودافَعَ عن تاريخها الجميل، والحيِّ، والنَّابِض والممتدِّ...

درنة التي في خاطري
(ماريانا لاتسي)(*)

وقف الصبيُّ في منتصف الزقاق، ليحدِّد مجال رؤيته جيّدًا، وليتأكَّد ويعود ليخبرها بما رأى. كان النهارُ ساكِنًا لا ريح فيه. وكان الوقتُ شتاءً. شتاء هذا العام يشبه خريفه. مُزنٌ خُلَّب وسحابٌ رُكاميٌّ بلا مطر، وسماءٌ، في معظم الوقت، صافية زرقاء، والرايةُ ساكنة، تلتفُّ حول العصا القصيرة في خمولٍ ودَعَةٍ، لا تشي بشيء.

هذا الحالُ لن يعجب أمه، التي تطلب منه كل نهار، لدى عودته من المدرسة، أن يطالع الراية ويخبرها بما رأى. ستحزن، وربما ستكتئب؛ إذن لا داعي للتهويل. بعضُ خيالٍ لن يؤذي أحدًا.

طَرَقَ الباب فأسرَعَت ملهوفةً، قبَّلها ومازحها بسؤاله المعتاد: «شنو غدانا؟»، وتردُّ كالمعتاد: «ستجد ما تحب»، هذا إذا كانت سعيدة، وستقول له: «كول اللي تلقاه»، إذا كان مزاجها سيِّئًا.

هذه المرَّة بادَرَها بالإجابة قبل أن تلقي على مسامعه سؤالها اليومي: «ترفرف... ترفرف كلهم بخير. أنا جائع»، فتحتضنه وتُقبّله، وتساعده في تغيير ملابسه، ويذهب مُسرِعًا لطبقه ليلتهمه...

«درنة»، في بداية ستينيات القرن الماضي، في شتاءٍ عادي، ورتابة المدينة الصغيرة لا جديد في نهاراتها، تبدأ مع أول شعاع ترسله شمس الله، وينتهي بعد أن تُلَملِم ما تبقَّى من ضياء، وتتسلَّل خلف الأفق تتدثَّر بألوان الوداع: شفقٌ أحمرُ يُلهم من به مَسٌّ من شِعر أو سِحرُ فرشاة، أو لوثة عودٍ. وفي «درنة» يُضاف لهؤلاء نفخة «زُمَّارة» تنطلق مودِّعَةً نهار المدينة بنغمٍ يحمل آلامًا تراكَمَت، يسلِّمُها جيل إلى جيل، تتردَّد بين أصابع كل من يحمل تلك الآلة الصغيرة، ينفخ أوداجه، ويطلق زفرة داخل قصبتين قصيرتين –لا يتعدَّى طولهما بعض سنتيمترات– مربوطتين برباطٍ جِلديٍّ مُلوَّن، ويلعب بأصابعه على ثقوبها، فتصنع الأنفاس نغمًا يُحيِّر السَّامعين. مَن ألَّف هذه النغمات؟ ومَن حفظها من الاندثار؟ ومَن علَّم هؤلاء الصِّبية هذه اللعبة؟ لا أحد يجيبك؛ فأغلب أولاد المدينة يولدون بأصابع تجيد الحركة بين فتحات الزُّمَّارة لتهب الفرح والآهات...

ودَّعت «درنة» حُجَّاج ذلك العام بالزغاريد والتهليل، الكل لوَّح لـ «ماريانا لاتسي» ودَعَا، وغَنَّت البنات «يا باخرة يا ماريانا يرعاك المولى سبحانه»!.

يعود الجمعُ إلى بيوتهم التي تختبر القلق والتَّرقُّب لمعرفة أخبار أحبابهم وهم على ظهرها، في رحلة طويلة عبر البحر الأبيض المتوسِّط، ثم تعرج من «بورسعيد» عابِرةً «قناة السويس»، التي يختلط فيها ماء البحرين -الأبيض والأحمر- ويمرُّ عبرها آلاف العابرين، ومن بينهم حُجَّاج المدن المطِلَّة على ذلك الساحل الممتدِّ من «طنجة» وحتى بلاد «الشام»، ومنهم حُجَّاج تلك المدينة الوديعة اللطيفة والهادئة...

سوف لن يعرف أهل الحجيج وأقاربهم أخبارَهم إلَّا بعد وصولهم بأسابيع -إن كان بعضهم سعيدَ الحظ-... سيتفاجأ بصوتٍ يحبُّه عبر المذياع يُبلِّغ السلام لعائلته فردًا فردًا. فيصيح الجمع، حول الجهاز الكبير، وكأنَّ حبيبهم قد خرج منه، ومدَّ يده للسَّلام. أمَّا البعض الآخر فلن يعرف شيئًا إلَّا من تلك الراية، التي تنتصب فوق بيوت مَن قصدوا ذلك المكان، أو هكذا ظنُّوا، وتواترَت هذه الظنون حتى تحوَّلَت لشبه يقين، أو من بَرقيَّات تطمئنُّ القلوب الخائفة، هذا إن فعل بعض أحِبَّائهم، غير أن الكثيرين لا يهتمُّون، أو أنهم لا يعرفون. فوسائل التواصُل قليلة، والهواتف غير متاحة لكل البيوت، إلَّا أن صبيَّنا كان حصيفًا، ولا يخلو من حِكمَةٍ. ظلَّ يُردِّد نفس الجُملة على مسامع والدته، كلَّما عاد من المدرسة: «ترفرف يا أمي»؛ فينشرح البال، وتنطلق الأسارير، وتقبل على الصبي هاشَّةً باشَّة...

لا تخرج كثيرًا، وإلى أين ستخرج؟ تتمشَّى في شوارع مدينة تحبُّها ولا تعرفها؟ لا بالطبع، لن يحدث هذا... لم تخرج النساء يومًا لنزهة، فهُنَّ يخرجن مُهنئّاتٍ، أو مُعزّيات، أو لزيارة أُسَرِهنَّ. يعرفن وقع خطاهن خطوةً خطوة. لن يُغيّرن المسار ولا يجرؤن، ولا تعرف أقدامهن غيره. ستخرج والدته ملتحِفَةً بجردها الأبيض الناصع البياض العابق بروائح البخور والمسك الدرناوي، مُيمِّمةً تجاه الجانب الأيمن من الزقاق، مهتديةً بعينٍ واحدة تطلُّ بها على الدنيا من حولها! وتعدُّ الأبواب التي ستمرُّ بها، وعند الباب الخامس ستتوقَّف وتَطرُقه، وسيُفتح لها وتحضن زوجات أشقَّائها، وتدلف إلى وسط الحوش، حيث يمتدُّ حصير كبير بشكل مستطيل، وقد رُصَّت حوله طراريح مُلوَّنة وعدالة الشاهي في أحد أركانه و«حمَّاس الكاكاوية» يُقلب محتواه بيدٍ ماهرة، تقلِّب ولا تحترق...

هي تشتاق للوادي، وتخشى أن يُقبِل الظلام -ونهارات الشتاء قصيرة- قبل أن تلقي نظرة من خلف سياج سانية بيتهم. تركَت الجلسة، وعبرَت البهو الداخلي مُنطلِقةً نحوه. كان المكان يضجُّ بالخُضرة بكل أنواعها. كل بيت في المدينة يزرع ولو القليل لتلبية احتياجاته. هذه السانية المليئة بالخيرات تحيطها أشجار التوت والرمَّان والمشمش ودوالي العنب، التي تُموِّل المطابخ بأساس المطبخ الدرناوي العريق، ومحاطة بسياجٍ تلتفُّ حوله شجيرات الياسمين ساكنة حدائق المدينة وجناناتها الصغيرة...

تلتقي بجيرانهم... تشعر بحُبٍّ غامر للسيدات، وقد جلسن تحت شجرة التوت... تعلو ضحكاتهنَّ ويتبادلن الحَكيَ ورائحة الشاهي المعطَّر تؤنسهن، فتشتاق لوجهٍ كانت صاحبته تزيّن هذه الجلسة بجمالها وحضورها الطاغي. تُطمئن نفسها القَلِقَة بأنها ووالدها وزوجها بخير، تحيّيهنَّ ويدعونها للجلوس معهنَّ، وتعتذر إلى وقتٍ آخر، وتعبر السانية إلى مستوًى مُنحدِر ببعض درجاتٍ تُنزِلهنَّ، لتمرَّ بسانية أصغر، بها نخلاتٌ تحبُّها وتعرف جودها وبرَكتها...

تسرع للسور المرتفع، وتتلفَّت بحثًا عن صندوقها، وتجده في مكانه، فتصعد وتلقي نظرة عليه. إنه يشقُّ المدينة نصفين، وتصطفُّ حوله بيوتها من الجانبين، ويستمتع سُكَّان الضفَّتَيْن بسحر المكان، وخاصَّةً في شتويَّات سنين بعينها، حيث يندفع بمياهه الطينية وصوته الهادر عابِرًا إلى البحر، الذي يحضن المدينة من غربها إلى شرقها... فتربض وادِعةً بينه وبين تلالٍ تُؤنِس فرحها وتبهج ساكنيها بطَلَّتها الفريدة... فتتلَّون شواطئه بذلك اللون، ويلهو أهل الوادي وشاطئ البحر، وتسعدهم هذه التبدُّلات... غير أنه وتتذكَّر ويرتعش القلب لصورٍ استحضرتها لغضبته وزمجرته، ذات مساء، ولا زالت المدينة وأهلها يستعيدون ما جرى ببعض أسًى وخوفٍ من غضبات مماثِلة... «تطلق نظرها»(**) لبُرهَةٍ وتعود إلى جلسة العشيَّة مع أشقَّائها وزوجاتهم، ثم تستأذن عائدة لبيتها، تمدُّ الخُطى المحسوبة، وتقترب من البيت. وفجأة تتذكَّرها، وترفع رأسها نحوها لتطمئنَّ، ويا لهول ما رأت! الراية تلتفُّ حول العصا بلا حركة. شعرت بألمٍ يعتصر قلبها. وسرى الخوف والرعب ببدنها، وعادت باكيةً وكأنها تنعى حُجَّاج ذلك البيت: زوجها وأمها وأبيها...

لم تنَم تلك الليلة، ولا الليالي التي تلَتها. ولم تعُد تصدِّق الصبي وأخباره، وتبَدَّل الحال، وحامت على البيت غيوم الأسى وزفرات الحزن والخوف...

لم تَكُن أيامها التي تلت تلك الزيارة تشبه أيامها قبلها، واقترب الخوف حدَّ الهلع، وتساءَلَت: «ماذا لو؟»... وتعود من توَهان فِكرِها، وتُوبِّخ حالها: «لِمَ كل هذا الرعب؟؛ كل البيوت الأخرى براياتها تعاني خمول تلك الخرقة، وعدم رغبتها في الرفرفة! لكنَّ ساكناتها يمرحن ويخرجن للزيارات، ولا يلقين بالًا لأسطُح بيوتهن ولا لتلك العصا وما تحمله. ستون يومًا مرَّت على ذلك البيت الواجم ولا شيء يُبدِّد كدره...

تقترب الأيام ويزداد وجيب القلب ولا تجد بُدًّا من تجهيز البيت للاستقبال أو للحزن. يأتي مَن يساعدها ويعينها على الصمود؛ فلا شيء يستحقُّ كل هذا القلق...

تكثر الحركة في الزقاق، ويخرج الصبي ليلهو مع رفاقه ويتبادلون الشكوى من حال بيوتهم القَلِقَة... لكنَّ الآمال الكبيرة تسري بينهم. سوف يحصلون على طواقي وجلاليب بيضاء وبعض ألعاب غريبة يُحضِرها الحُجَّاج في العادة: مُسدَّسات تثير الضجيج وتضيء المكان بألوانها. والبنات سيحصلن على العقود الملوَّنة والغوايش. والكبار لهم السبحات و«اللوبان» وأغطية الرأس...

قلقٌ لدى الكبار، وبهجةٌ عند صغارهم. لكن الانتظار واحدٌ وطويل بلا أخبار إلَّا من برقيَّاتٍ قليلة لا تحكي كل شيء...

حلَّ يوم دخول «ماريانا لاتسي» الميناء، وذهب الصبيُّ مع أقاربه لاستقبال العائدين. كان الصباح في بداياته، والشمس الشتائية الباردة تشرق على استحياء، وتتموضع في طرفٍ قصيٍّ خلف «عقبة الفتايح»، وتتسلَّل ببطء إلى زُرقَة السَّماء.

تقتربُ القطعة البحرية الضخمة من الميناء، وتلقي مراسيها، ويظهر على سطحها حجيجُ «درنة». تفحَّص الصبي الوجوهَ مُرتَعِبًا؛ فمخاوف أمِّه تلاحقه هذا الصباح، وهو لا يعرف ماذا سيقول لها هذه المرَّة، فحبل الكذب قصير، أقصر من المسافة ما بين سُلَّم الباخرة وباب بيته، ولن يتمكَّن من خداعها مرَّةً أخرى، لكنَّه، وفي وسط وساوسه وقلقه، لمح ثلاثة وجوهٍ يحبُّها، هم ما غيرهم: وجه جَدَّته وجَدِّه الأثيرَيْن، ووجه والده. صاح جَذِلًا، وانتظر اقترابهم، ورمى نفسه في حضن أبيه، وشكى له ممَّا فعَلَت به أمُّه وتلك الراية الغريبة، فابتسم الرجل...

عاد ثلاثتهم للزقاق الطويل، الذي تصطفُّ فيه بيوتٌ عزيزة على قلب الصبي... صبايا ذلك الزقاق يُصفِّقن فَرِحات: «يا حجاج إن شاء الله بعودة... واتجيبولنا شاش الدودة»(***)... بعضٌ من تلك البيوت تحمل على سطحها رايات كراية بيته. لكنَّ بيتًا بعينه سيُنزِل الراية ولن يضعها على «قصعة العصيدة»؛ فصاحبه أتمَّ رحلته في ذلك المكان القصيِّ وتدثَّر بأرضه...

---

* ماريانا لاتسي: باخرة يونانية كانت تُقلُّ الحُجَّاج الليبيّين في الستينات.

** تُطلِق نظرها: بمعنى تُروِّح عن نفسها.

*** شاش الدودة: أقمشة الحرير.

من «دَرنَة» إلى «اسكوتلاند»...

تعالوا يا ضناوين(*) عندي لكم نكتة! يدفع كل واحد الآخر ليذهب بدلًا عنه. تلاحظ انشغالهم عنها؛ فتنهرهم بسبابٍ مُضحِك، فتسري بينهم ابتسامة. ضحكتها تنتشر كعدوى يتمنَّاها كل مكتئب!

يُقبِلون عليها أولادًا وبنات، ويلتفُّون حولها انتظارًا للنكتة، واستعدادًا للوقت الطويل الذي سيأخذه سَردُها، لمعرفتهم بنِكاتها القديمة. لم تكن نِكاتٍ بل قصص أو «خرَّاف» طويلة، لتبقيهم بجانبها أطول وقتٍ مُمكِن، حتى تملَّ هي، أو تلاحظ تَمَلمُلَهم وصمتهم، في انتظار الضحكة، التي تتبع النُّكتة، والتي تأتي غالبًا في نهاية الحكاية، فيضحكون، إمَّا مُجامَلةً أو خوفًا من رِدَّة فعلها، أو يضحكون فعليًّا ممَّا روَته وأضحكهم...

هي سيدة جميلة المحيَّا، فارعة الطول، بجسدٍ -سبحان من أبدعه-، خمريَّة، فيها حلاوةٌ تُدهش الرائي وتُحيِّره، فلا يجدُ لها إلَّا تفسيرًا واحدًا، هو الحضور الطاغي، أو ما يسمُّونه القبول... آسِرَة للقلوب، وإلَّا ما الذي حصل للرجل -الذي أصبح زوجها فيما بعد- عندما لمحها وأصرَّ على الاقتران بها ورفَضَت أسرته؛ لأن عروسًا أخرى اختاروها له وبانتظار موافقته... لقد حاول الانتحار، وهذا ما ترويه دائمًا عجائز الأُسرَة بتعَجُّب، وربما بغيرة النساء من بعضهنَّ.

تزوَّجَت به بعد أن أرضخ أسرته لرغبته، وبعد أن أخافها من استهانته بحياته من أجل هذه السيدة الجميلة. عاشت معه حياة صاخبة، وهو الأشقر الوسيم، طويل القامة، بشَعرٍ ذهبيٍّ يمشِّطه على طريقة نجوم السينما في ذلك الزمان، وبذراعيه الموشومتين بأسماء حبيباته السابقات كان اسم «عزة» واضحًا، وكان محلَّ تساؤل الجميع، وسِرَّه الخفيَّ، أمَّا باقي الوشم فهو حروفٌ لاتينية، ربما لها علاقة بتواجُدِه الطويل في «طُبرق»، وكانت مليئة بالصبايا الانجليزيَّات!

وهو أيضًا رجلٌ شجاع، ومحارِبٌ قديم جنَّده الإيطاليون -كما فعلوا مع الكثيرين من الشباب الليبيِّين- قَسرًا، فحارب معهم في الحبشة، وعاد بجِراحٍ لا تُنسى؛ لأنها سكَنَت قلبه الشاب، فهو رأى البشر يُقتَلون، بَل يُبادون بلا ذنبٍ إلَّا حبهم لأرضهم، ودفاعهم عنها، وهو المشارك في هذه الحرب عنوةً، وغصبًا عن إرادته، هو يعرف أن كل مقاتلٍ ليبيٍّ ذهب إلى الحبشة يقابله مقاتلٌ حبشي أُرسل ليقاتل الليبيِّين، الذين يقاومون جنود الاحتلال الإيطالي... عاد من هناك إنسانًا مختلفًا، والتحق بجيش التحرير السنوسي بصُحبَة ابن خاله الشاعر «إبراهيم الأسطى عمر». لا بُدَّ أن هذا الشاب الوسيم قد التحق بالجيش السنوسي لينظِّف سيرته ممَّا عَلِق بها من أسًى وذُلٍّ، لذهابه عنوةً للقتال في الحبشة...

كل هذا العناء ترك في جسد هذا الشاب بعض المشاكل النفسية، التي ترتَّبت عليها مشاكل صحِّيَّة. فلم يفرح بالولَد، ولم يكن له عَقِبٌ من المرأة التي عشق وأحبَّ... سيرتهما معًا شديدة الغِنى، فيها الفرح وفيها السعادة، والتجوُّل في بلادنا وبلاد الله. لم يتركا مدينة جميلة في العالم لم يزوراها معًا، ويعودان مُحمَّلَيْن بالهدايا لأولاد العيلة المحبِّين لهما ولصحبتهما الجميلة... كانت تحب الطعام حبًّا جمًّا، وتجيد إعداده، فلا تجاريها سيدة في تلك المدينة. كان يوم استقبالها لأفراد الأسرة كبيرة العدد يومًا مميَّزًا، يُشار باسمه كيوم عيد! لا وقفة في المطبخ تشبه وقفتها، ولا روائح طعامٍ تشبه روائح طعامها. تقدِّم كل ذلك مصحوبًا بضحكاتٍ مجلجلة، وحلفان(**) بأن «كلوا ولا تتوقَّفوا»... تعقب كل ذلك بطاسة(***) الشاهي الأخضر –لا يصلح لها أي وصفٍ ولا توفيها الكلمات حقَّها–، لها تقنية خاصة في إعداده أورثتها لبعض بنات العائلة –وأنا منهن– يتناقلن سِرَّها من جيلٍ إلى جيل. تضع حبوب الشاهي الأخضر في البرَّاد(****) وتسكُب فوقه الماء المغلي كمرحلة أولى، ثم تُصفِّيه وتضيف ضعف كمية الشاهي سُكَّرًا، ثمَّ الماء المغلي، وتضع في وسط البرَّاد ملعقةً من الستيل؛ حتى لا يرتفع الشاهي ويتناثر حول النار، وتُبقيه وقتًا محدَّدًا ليتمازج مع السكر، فيصبح كالقَطْر بطعم الشَّاهي أو شاهي بكثافة القطر وحلاوته، ثم وبحركة مدرَّبة تضيف النعناع والزهر، وترفع البرَّاد من على النار بسرعة؛ حتى لا يغلي النعناع ويفقد رحيقه البِكر، ويتم سكبه في الطواسي الصغيرة، وتوزيعه على الهائمين في عشقه وطعمه وسرِّه العظيم...

تتوالى السنين وتفقد أنيسَ أيامها، وتعاني الفقد. أمَّا الوحدة فلا. كيف تترُك هذه السيدة الجميلة الكريمة وحدها؟! التفَّت قلوب العائلة، فكانت محورَ كلِّ لقاء وبهجته، بضحكها وحكاياتها ونِكاتها الطويلة... أُنهكَ الجسد بفعل الزمن والفقد وبدأت عوارض مرض السُّكَّر، ولم تقبل بالهزيمة، فاستمرَّ نهجها السلطاني في إعداد الموائد العامرة بكل ما لذَّ وطاب، ولم تُعِر العدوَّ اللئيم الذي ينهش جسدها أهميةً. عانت عوارض مرض السكر حتى فقدت نور عينيها... تألَّم لألمها كلُّ مَن عرفها وأحبها، كانت كلَّما خَبَا نور عينيها توهَّج نور قلبها وبصيرتها. كانت تصرُّ على اختيار ملابسها وأناقتها وكأنها ترى نفسها في مرآة... ظلَّت كما هي، حتى بعد أن كبرت، وزاد كيس أدويتها حجمًا وامتلأ. كان أولاد الأُسرَة وبناتها يهربون إن نادت «يا فلانة» أو «يا فلان»: «أنا أراك... اذهَبْ بسرعة لغرفتي وأحضر كيس الدواء»، ويتعجَّب الصغار: «كيف ترانا؟».

كانت نورَ الجلسات وروحَها، بدُعاباتها وقصصها التي لا تنتهي، كانت تتحدَّث عن مأتم زوجها وحبيبها فتقول: «كان العزاء في أيام صيفٍ قائظ، وكنتُ أرى أهل البيت يعانون التعب لكثرة المعَزِّين؛ فأرسلتُ مَن يحضر الآيس كريم لهم ليتذكَّروا الغالي بالكلام المحلَّى بطعم الآيس كريم»!. ولا زالت الأُسرَة كلَّما جاءت سيرتهما تستعيد واقِعَة الآيس كريم والابتسامة على وجوههم...

كنتُ مع ابنتي «ريما» –لعشر سنين خَلَت– في عربة القطار مُتَّجِهَتَيْن إلى «اسكوتلاند»، وجاءت سيرتها وصورتها على بالي، وصرتُ أحكي عنها وعن نوادرها المضحكة، قلتُ لـ «ريما»: «لو كانت معنا لأحضرَت معها أروعَ أكلٍ، حتى لو كانت الرحلة قصيرة!»، فرأيتُ «ريما» تُغيِّر الموضوع، وعلامات أسى على وجهها، فلم أنتبه... نزلنا إلى المدينة، وبينما

نحن نتمشَّى ذكَّرتها بواقعة أخرى مُضحِكةٍ لها، فأخذتني «ريما» من يدي وأجلَستني، وقدَّمَت لي العزاء في رحيلها المفاجئ. كان يومًا من أصعب أيام حياتي وأقساها...

---

* ضناوين: الأولاد أو الضنا.

** حلفان: القَسَمْ

*** البراد: إبريق الشاي.

**** الطاسة: كوب صغير خاص بالشاي.

عين بنت(*)

دَوَّتْ صرخةٌ في سكون الفجر، فاستيقظ مَن بالخيام المجاورة، وخرجوا فَزِعين ليستطلعوا الخبر. كانت صبيَّةٌ على وشك أن تبدأ رحلتها في هذه الحياة، وعلى أرض ذلك الوادي، والأمُّ تعاني عُسرَ ولادة، فأطلَقَت صرخةَ الوجع والألم وطلب الغوث...

كان الزمانُ ربيعًا، نشر بهجته على كل شيء، حتى قلوب سُكَّانه السعداء، بصباحاته الدافئة بعد شتاءٍ طويلٍ، وصفه من عايشوه بأنهم لم يروا مثله في حياتهم. فهم لا يعرفون الثلج، وقد رأوه في هذا الفصل يتناثر بياضه على قِمَم الجِبال وحول الوادي، وأذهلهم ذلك، حتى إنهم تعمَّدوا جمعه ليتأكَّدوا من أن أصله ماء، وعَذَرهُم مَن رآهم: كيف سيعرفون قصة هذا الزائر الأبيض، والذي اكتسى به المكان كله، حتى أثقل خيامهم فتداعى بعضها وهبَّ الجميع ليأوي ويحمي سُكَّانها؟ قيل أيضًا إنه بعد أن توقَّف الثلج وأشرَقَت شمس الله، عاد إلى أصله وتجمَّع على شكل سيل، أخذ معه كلَّ ما ومَن كان في طريقه.

يستعيد الكبار تلك الأيام بدهشة وبحبٍّ وبريبة من هذه الطبيعة الصاخبة حولهم. عاد الربيع إذًا، وعاد الطَّلقُ وبَعْثُ الحياة في الوادي. تعاني ساكنة إحدى الخيام عُسرَ ولادة، وتتداعى النساء بين داعِمةٍ وداعية لله أن يخلِّصها على خير. وبين مندفعة تدفعها خبرتها القديمة فتحاول المساعدة، وبين نساءٍ واجماتٍ والحيرة ترتسم على وجوههنَّ، التي أخذت من جمال الوادي الكثير، وطبَعَته عليها، فكأنها هويَّة تجمعهنَّ، فما إن ترى إحداهن حتى تعرف أنها من هناك. جاء أحدُ الرجال مُهَروِلًا يبشِّر بمقدم القابِلَة «أم السَّعَد» (هذا هو اسمها)، وهو بالتأكيد يليق بمهنتها، التي تجلب الخير والسعادة وحياة جديدة تُضاف لهذا الجَمْع الجميل.

تقدَّمَت القابلة من السيدة التي تعاني آلام مخاضٍ متقطِّع، وبحركة من يدها خرجت النساء من الخيمة أو «بيت الشَّعَر» كما يسمُّونه هناك، وأبقت إحدى قريبات المرأة للمساعدة، وبدأت المحاولات دون جدوى، والوالدة تعاني آلام المخاض العَسِر، وهذه الساعات التي مضت دون بصيص أمل أن يُطلَّ المولود برأسه. كان يومًا طويلًا على الوادي وأهله الواقفين خارج الخيمة، والموجودات داخلها، والسيدة التي بدأت معاناةً حقيقية. اضطرب الحال وارتبكت القابِلةُ من علامات لا تحبها وتعرفها، بدأت تظهر على المرأة. لم يَطُل الوقت حتى أطلَّت بنتٌ أخذت قلب القابِلَة وقريبة النُّفساء، حتى إنهن لم ينتبهن للأمِّ التي تعاني التعب الشديد وضيق التَّنفُّس.

خرَجَت لهذه الدنيا طفلةٌ تحمل صفات الجمال الكامن –كما يقولون– الذي سيتفتَّح يوميًّا. أطلَّ الجمال وغابت مَن أنجَبَته، فأسلَمَت الرُّوحَ، بعد أن سلَّمَت للحياةِ طفلةً ستحكي عنها تلك التِّلالُ طويلًا. سَرَت فرحة وسرى بؤسٌ. أقبلت وردةٌ وغادَرَت وردة. جاء ربيعٌ وغادر ربيع. كان هذا حال الناس ولسانهم ذلك النهار.

لم تتوقَّف الطفلة عن البكاء؛ فساد الحزن في الأرجاء. الطفلة تبكي، كيف العمل؟ حاوَلَت النسوة الكثير دون جدوى. فنطق كبيرهم: «أحضِروا (أمَّ السَّعد)»، فحَضَرت، وما إن أخذت الطفلة بين ذراعيها حتى هدأت ونامت. «أم السعد» تحبُّ الأمهات وتحبُّ بذارَهُنَّ، وتعرف كلَّ طفلٍ وطفلة استقبلته على يديها وقطعت حبل سُرَّته وقبَّلَته وسلَّمته لأمِّه.

لم ينقطع الحليب عن صدرها يومًا، كأمٍّ رؤوم تنضح حلمتاها وتُبلِّل ثيابها كلَّما تلقَّت طفلًا جديدًا. ألقمت ثديها للطفلة فتمسَّكَت به ورضعت حتى نامت هانِئةً بين ذراعيها. سرى الخبر بين كبار المقيمين في الوادي، فاجتمعوا وقرَّروا أن تبقى القابِلَةُ «أم السعد» في المكان، وأن تواصل تغذية الطفلة بالحليب، وبالحب الذي سكبته في كيانها تعويضًا لغياب الأم... لكنها بلا اسم؛ ففي أيام الحُزن ينسى الناس أولوياتهم! وهل هناك أهمُّ من تعيين هذه الوردة، وإعطائها هويَّة أو اسم يليق بهذا الجمال، أو يُحَصِّنه من العين و«النِّفْس» كما يسمُّونها.

اقترَحَت «أمُّ السَّعد» أن تسمِّيها «نوَّارة». سكَبَت شيئًا منها في هذا الكيان الآسِر، تريد أن تتعلَّق به بأي شكلٍ، ولو بنوَّار ذلك الوادي، موطنها ومسقط رأسها. لم يعترض أحد، وانطلق في الوادي كأريج زهور الربيع التي تغمر الأرض فتنتشي وتمتلئ بالورود والرياحين وبالحب وألوانه.

تكبر «نوَّارةُ» عامًا، مع إطلالة كل ربيع تنتشر أخبارها كما ينتشر هذا الربيع(**)... تفرَّغَت «أُمُّ السَّعد» للطِّفلة، لم تعُد تغادر المكان إلا لبضع سويعاتٍ تذهب إلى «درنة» –»تتحَدّر» إليها، كما يُتعارف على هذه الرحلة–، تبيع بعض خيرات المكان، وتعود مُتَبضِّعةً بما يلزمها ويلزم الصبية، التي تتركها في حماية نساء النَّجع.

وجهٌ كالبدر في ليلة انتصاف الشهر، يُشِعُّ نورًا فتُذهِل الناس وتبتهج عيونهم بهذا الجمال النوراني. لها شَعرٌ كسبيب الخيل –هكذا يصفونه– شقراء بعينين زرقاوين،يقولون إنها وَرِثَتمها عن جدَّتها لأبيها. حُرِمَت الصبية من أبيها قبل أن تولد؛ فقد كان أحد المجنَّدين في الفرقة الإيطالية الليبية، التي شارَكَت في حرب الحبشة، وقُتِل هناك في تلك الحرب، التي لا ناقة له فيها ولا جمل، ترك الطفلة بذرةً في رَحِم زوجته، وخرجت إلى هذه الدنيا وحدها بالكامل، إلَّا من جيرةٍ طيِّبة، وامرأةٍ ساقها القدر لتُشرِف على ولادتها وحياتها فيما بعد...

في كل مرَّةٍ تنزل المرأة إلى المدينة الصغيرة لتبيع وتتسوَّق، كانت تصادفها أسئلة الناس: «كيف حالها؟»، و«كم عمرها الآن؟»، و«لمن تركتها؟»، «متى تحضرينها معك؟»، «نراكِ ازدَدتِ جَمالًا يا امرأة، هل زان ربيعها أيَّامَكِ؟»... وكانت تردُّ بابتسامةٍ وتتحجَّج بانشغالها بتجارتها الصغيرة، وتأخذ جانبًا وتحتمي بجاراتها القادمات معها لنفس الغرض: بيعٌ

وشراء. تختار النسوة القادمات من الوادي مكانًا بعينه، فيصطففن بجوار أو قبالة جامع «الصرواحي» بعد صلاة الفجر بقليل، يفترشن قِطعًا من أجولة «بو خطّ»(***)، التي تعود لجيش إيطاليا، والتي كان يُحضِرها معهم أبناؤهنَّ من المجنَّدين عنوةً به.

يضعن ما أحضرنه من خيرات الوادي: بعض الأعشاب التي يشتهر بها ذلك المكان، وأهمها تفاح «درنة» أو تفاح الجبل، ويسمَّى بـ «الميرامية»، وهو (Il salvia) بالإيطالية، وهي نبتةٌ عطرية غنيَّة الرائحة والطعم، يستعملها الدراونة مع الشاي في ليالي الشتاء والربيع الباردة، وأيضًا لها فوائد جمَّة، وطعمها رائعٌ مع بعض الأطباق التي تشتهر بها المدينة...

حتمًا سيأتي العديد من أهالي «درنة» ليتسوَّقوا ممَّا تحمل النساء من خير ذلك المكان الذي يعرفونه جيدًا. هذه المرَّة سيُحضِرن مخيض اللبن والزبدة البكر والجبن المجفَّف (القريش)... خيرات الربيع ونِعَمِه. بينهن «أم السعد»، التي ستُخَصُّ بالسؤال المعتاد: «كيف حال الصبية؟»، وتجيب بأنها تنمو وتسعد بالصُّحبة هناك، ويعيدون السؤال: «أين هي؟ لِمَ لا تحضرينها؟»، وتجيب: «قريبًا... قريبًا إن شاء الله».

كان شباب المدينة يتجمَّعون على مصطبة شهيرة وقريبة من الجامع، وتحمل اسمه، وهي تطلُّ على شارع البحر وبداية «زنقة زليتن». على هذة المصطبة مرَّت أجيالٌ، كلٌّ يأخذ دَورَه ثم يترجَّل، ويترك المكان لجيلٍ آخر كسُنَّةِ الحياة ومقاديرها. كانت الوَسامة طاغيةً على الجمع الجميل، الذي يجلس هناك ويتبادل أطراف الحديث و «يطلق انظَّرَه»، بالتعبير المحلي، وتعني أنه لن ترحم أعينهم أيًّا من النساء الحاملات الخير وجَمال البداوة وحُسنها غير المجلوب...

مرَّت أسابيع وشهور وسنوات، وجاءت لحظة «نوَّارة» لتنزل مع النساء إلى المدينة، ولتساعد أمَّها «أم السعد»؛ فالمرأة تكبر وتتعب، والحمل ثقيل، وآن الأوان للنوَّارة أن تأخذ مكانها، لكن برفقتها: مَن يترك هذا الجَمالَ وَحدَه؟

في جُمعَةٍ بعينها هبَّت نسمة ربيعٍ مُضمَّخة بعطرٍ لم تتنسَّم المدينةُ مثلَه، وتناثرَت على طُرُقاتها أوائل وردٍ كُنَّ بالأمس نوَّما(****). مَن أيقظته تلك النسمات هبَّ نشطًا وسعيدًا ومذهولًا ممَّا يجري. أي جمال يحلُّ بينهم؟ ما القصة؟ لم تكن هناك قصة! كانت نوَّارة بالمدينة لأول مرَّة مع نساء الوادي، تجلس بينهنَّ أمام جامع «الصرواحي»، وبالقُرب من المصطبة الشهيرة.

تقول الأخبارُ إن الرجال سادهم ذهولٌ ووجلٌ وانبهار. كانوا ينظرون إليها وينسون ماذا سيشترون، بل إن ذهولهم أنساهم المسجد، الذي وراء ظهورهم، فيمَّمَت وجوههم نحو وجه «نوَّارة» وصباها وحُسنِها.

كان الفتى «يوسف» بين الجالسين على المصطبة، يتسامر مع صَحبِه، ويلتقط نظرة من هنا وابتسامة من هناك من بعض العابرات. لمح الفتى اصطفافَ الرجال وادِّعائهم الاهتمام ببضاعة نساء الوادي، فترجَّل وذهب ليعرف ما الذي يجري...

قيل إن حاله تبدَّل مباشرةً بعد ترَجُّله من المصطبة، فصحبُه رأوا بعد عودته إليهم فتًى آخر، غير الذي كان بينهم قبل لحظات. كانت عيناه مشرقتَيْن، وقلبه مُبتَهِجًا، ووَسامته تجلَّت وظهرت، وكأن غطاء الوداعة المشوبة بالحزن قد زال، وانكشف وجه رَجُلٍ تهاوى قلبه منذ قليل في بئرٍ من العسل.

صمت «يوسف» وغاب عن صحبه، وظلَّ الجسد بينهم، أمَّا القلب والهوى فغادر مع المغادرات إلى حيث يُقِمْن.

لم يكن قلبُ «يوسف» وحده مَن تَبدَّل. قيل إن الفتاة لم تعُد كما غادَرَت، وأن نظراتها الهائمة على غير هُدًى حيَّرت أمَّها «أم السَّعد» ونساء الوادي... الصبية عَلِق قلبها بقلب الفتى، وبينهما جبال «درنة» وتقاليدُ حاكِمةٌ؛ فكيف يقترب القلبان؟ غامر «يوسف» واقترب من التِّلال المحيطة بالوادي؛ علَّه يعثر على نوَّارته التي غطَّى ربيعُها قلبَه الغضَّ... تردَّد على المكان كثيرًا، حتى جاء اليوم الذي تمنَّاه والتقاها. سادت لحظات ذهول، وسَرَت في الوادي نسوم الهوى، وتلوَّنت الأنحاء بلونٍ ورديٍّ.

هكذا حكت عجائز ذلك الزمان. سار «يوسف» وراءها ليعرف خيام أهلها، ويعلن رغبته في الاقتران بها... مَن كان بالمكان روى أنه كان واقِفًا، وكانت تشير إلى خيمتها، وأن «الجذَع»(*****) هوى على الأرض يتلوَّى ويهذي باسمها، وبلماذا؟ وما ذنبي؟ مَن أنتَ ولماذا تقتلني؟ ولم تكتمل الكلمات وصمتَ القلب الصغير إلى الأبد.

لا زال سُكَّان الوادي يذكرون تلك الواقعة، وكيف أن الفتاة ناحت عليه بأغنية عَلَم: «يتيمة العين اقعدَتْ عزيز كان بوها وامها»(******) بكت بها «يوسف» وغابت، بحث الناس عنها ولم يعثروا لها على أثر. ويكمل الرواة، وحسب الأسطورة التي تتردَّد أنه تمَّت مشاهدة فتاةٍ بملابس تقليديَّة جميلة، وتنتعل حذاء «الرقعة»(*******)... وهي تظهر في وقت السَّحَر، وتمشي ما بين قبر الوليّ الصالح المدفون بالوادي «سيدي شاهر روحه»(********) وعين المياه هناك، وتشرب منها ثم تختفي!

سُمِّيَت عين المياه بها: «عين بنت»... أخذ الوادي اسمها أيضًا(*********).

---

* استلهَمَت الكاتبة الحكاية من تسمية المكان المعروف بـ "عين بنت"، ويقع شرق مدينة "درنة".

** الربيع: تطلق على الخضرة والزهور في أوان الربيع

*** شوال بوخط: كيس كبير من مقتنيات الجيش الإيطالي، كان مرسومًا عليها العَلَم الإيطالي.

****كنَّ بالأمس نوَّما: من بيتٍ شهير للشاعر البحتري.

***** الجذع: الشاب الصغير.

****** تقول "نوَّارة" في هذا البيت إنها تيتَّمَت بمقتله بالفعل؛ فقد كان لها الأب والأم معًا.

******* حذاء الرقعة: حذاء مصنوع يدويا تشتهر به نساء المنطقة ويلبس في الشتاء ويشبه (البوت).

******** اسم الولي الصالح المدفون بالوادي.

********* جزيل الشكر للباحث الأستاذ عبد الله بو دربالة، والسيدة زوجته.

وقائع حلم معلن.. وبعض من خيال الساردة إلى ريما(*)

اقتربت سيارتي من جزيرة الدوران، يعني هذا أنني اقتربتُ من بيتنا. أصلحتُ هندامي، وتيقَّنتُ من جَمال وجهي في المرآة؛ فالسيدة التي تنتظرني تعشق التفاصيل!

خفَّفتُ السرعة لأتيح الطريق لبعض العابرات المستعجلات العائدات من المدارس القريبة، وفي المرآة أيضًا شاهَدتُ إشارة وانزعاج ظاهر من رَجُل المرور أن توقَّفي. وجدتُ نفسي في طابور طويل من السيارات فخفَّفتُ السرعة، وأعدت فتح الراديو فوجدته كله عواجل: «كورونا في كل مكان»، فأطفأته، وفتحت أغنية إيطالية لـ «فيوريللا مانويا» (che sia benedetta) نحبُّها: ماما وأنا، وصِرتُ أُدَندِن بسعادة؛ فالبيت على مرمى البصر، وأُمَنِّي النَّفس بوجبةٍ من يدَيْ «سِتّ الحبايب».

وبينما أنا في تخيُّلاتي سَمِعتُ دقَّاتٍ على الزجاج فأنزلته، وإذا برَجُلٍ يرتدي ملابس بيضاء ويوجِّه جهازًا لوجهي، وما هي إلَّا ثواني حتى صرخ: «انزلي حالًا».

أُصِبْتُ بهلع المفاجأة. ونزلت كما طلب منِّي، وأشار لي أن اصعدي لسيارة الإسعاف القريبة.

انطلَقَت السيارة بسرعة، وصوت بوقها يصمُّ الآذان. ودَقَّاتُ قلبي تكاد تقتلني خوفًا وقلقًا.

وصلنا لمكان واسِعٍ جدًّا، كأنه خيمة كبيرة، أُعِدَّت بسرعة. تلقَّفَتني الأيدي، وحملتني لمعزِلٍ أرعبني، وما استطعتُ الاعتراض. بدأ الظلام يلفُّ المكان، ولا بُدَّ من الاتصال ببيتنا، لكن هاتفي المحمول في سيارتي المسكينة، التي تركتها ولا أعرف مصيرها.

تطوَّع عامِلٌ مُهذَّبٌ وأمدَّني بهاتفه، محاوِلًا ألَّا يلمسني، وقد لفَّه بمنديل ورقيٍّ، أخذته شاكِرةً واتَّصلتُ بسرعة بماما، أبلغها ما جرى. وإذا بي أُفاجَأ بأغرب رِدَّة فِعلٍ من أُمٍّ مُحِبَّة وحنون، سمعتها تقول: «نا ادخيلتك ما تجيش، خليك في مكانك نين تبري»!(**)

---

* مستندة لحلم روته ابنتي ريما.

** نا اندخيلتك...: معنى الجملة: رجاءً لا تأتي حتى تشفي.

مشوار

وقفَت على ناصية الزقاق، حيث تسكن...

هذا الزُّقاقُ الواصل بين «البياتسا» الصغيرة التي تطلُّ عليها مدرسة البنين –ذات البناء الإيطالي الجميل– ببهاءٍ وعَراقة ظاهرة، وبجواره مرقد «سيدي إمْحَمَّدْ بيّ»، ساكنُ المدينة، الذي يتوسَّط مقبرة قديمة مُسيَّجة بسياج قصير، يُمَكِّنُكَ من رؤية شواهد القبور لأطيافٍ من البشر مرُّوا على هذه الدنيا وغادروها، وينامون هنا بسلام.

في هذه البياتسا لَعِبَت وتأمَّلَت جلسات الرجال، أمام دكان «سي بن علي» يلعبون «السيزا»: يرسمون على الأرض مُربَّعاتٍ، ويوزِّعون الأحجار الصغيرة المستوية. تراقب صياحهم وضحكاتهم، ثم تعرج على صنبور المياه الجميل، على هيئة تمثالٍ دقيق النحت، وبضغطةٍ بسيطة عليه تنساب المياه، فيندفع الصبية والبنات يحرِّكون أكُفَّهم تحتها، فتتناثر قطراتها الباردة على وجوههم وملابسهم، فينعمون بسعادةٍ طارئة وبريئة وسريعة، حيث سيأتي من الكبار مَن ينهرهم، فيبتعد الجميع عن الصنبور، ويعود تمثالًا مُلفِتًا لدِقَّة صُنعه وجماله...

هذه هي السَّاحة التي يتفرَّع منها الزقاق، وعنده تقف الصغيرة تنتظر رفيقتها القادمة من هناك... ها هي تلوِّح بيدها، وتلقي تحية الصباح. اسمها «منى»، وهي ابنة قاضٍ معروف، صغيرة الحجم، دقيقة الملامح، شقراء. بين الصغيرتين ودٌّ قديم قِدَم طفولتهنَّ وصِباهن. وقفن متجاورات ينتظرن الثالثة، «مريم»، القادمة من «ستّ استينسا»(*)، ابنة عائلة كبيرة العدد، يسكنون مزرعة معروفة باسمهم، تُقدِّم لـ «درنة» كلَّ الخضروات المطلوبة لموائدها الشهيرة، ستمرُّ الصَّبيَّة «مريم» من «بياتسا ست اسينسا»، حيث الشجرة الضخمة التي تُظَلِّل مساحة كبيرة منها، وحيث الخوف من ابنة الطبيعة الوارفة الظلال هذه، وقد أفهم شقيق هذه الصديقة الصغيرات بأن أوراق تلك الشجرة تحمل أسماء سكان المدينة، وأنه في ليلة الإسراء والمعراج يهزُّها الله، فإذا سقَطَت بعض الأوراق فإن أسماء أصحابها سيموتون في العام الذي يليه. كنَّ يسمعن له ويصدقنَهُ ويُصَبنَ برعبٍ إن مَرَرن بها، فما بال هذه المسكينة التي تعبرها كل صباح وكل ظهيرة! كنَّ يُشفِقن عليها عندما تودِّعهن وتكمل المشوار وحدها!

تجمَّعن، وتشابَكَت أيديهنَّ، وأخذتهن الطريق إلى المدرسة. كانت المسافة بالنسبة لذلك الزمان الجميل طويلة، لكنها مُمتِعة. سيسعدهن مناظر المحلات الصغيرة دكان «سي مفتاح»، وأمامه زحام لتلاميذ يناولهم شطائر «التن والهريسة» –من إعداده– ملفوفة بحرص. وستعرج إحداهن على محلات «بن حليم»، فتصعد الدَّرَجتَيْن إلى المكان، وتُحيِّي صاحبه، وتنتظر

تجهيز شطيرتها، وتراقب يده وهي تقطع دائرة الجبن الحمراء اللذيذة، فيسحبُ منها بعض القطع، ويفتح الخبز الساخن ويضع الجبن ويلفُّه بورقٍ خاص ويعطيه لها، ويوصيها أن تُسلِّم على والدها، فتهزُّ رأسها مؤكِّدةً أنها ستفعل.

يَعُدنَ إلى الطريق بجدٍّ مُسرِعات الخطى، فيَعبُرن الجسر الذي يقسم المدينة الصغيرة، أو الذي يربط ضفَّتَيْها، فيرفعن أرجلهَنَّ الصغيرة قليلًا عن الأرض، ليستمتعن بمنظر الوادي الجاف -يمتليء أحيانًا في موسم الأمطار- ثم يواصلن الطريق بخفَّة، فيصلن إلى ساحة صغيرة تطلُّ عليها محلاتٍ متنوِّعة، بعض الترزية المعروفين في المدينة -التي يشتهر شبابها بالأناقة- ومكتبة كبيرة تعلن عن كتبٍ جديدة بواجهتها العريضة الجميلة، ومحلَّاتٍ لبيع الملابس والساعات. وهكذا يتبادلن على عجل المشاهدة من جانبي الساحة، ثم يعرجن الى الشارع الكبير «الفنار»، وعندها تُسرع الخطوات ويعلو وجيب القلوب. يساوين هندامهن، ويقتربن من السور المهيب، ثم البوابة الصغيرة المحاذية للمدخل الرئيسي، ويلقين التحية على الخالة «مبروكة» فتُشرع لهنَّ الباب ويدخلن مُسرِعات، حيث التزاحم والاصطفاف وموسيقى الصباح، ويعلو النشيد فيرددن معه بنشاطٍ وحيوية.. وبعدها تقفُ على العتبات المواجهه للصفوف «أبلة سالمة» بهتافها اليومي: «يعيش جلالة الملك يا، يعيش يا، يعيش يا، يعيش يعيش يعيش»...

---

* حي صغير بالمدينة.

«هَنيَّة» بنت السوريلات

تفتحُ الباب الرئيسي، المطلُّ على الحديقة الخارجية لـ «بارتو 50»(*)، وتدخل الممرَّ الفاصل بين الغرف المفتوحة والمليئة بالزائرات... تُسمِعُ –مُتعمِّدةً– صوتَ خشخشة مفاتيحها، وكأنها طبول حرب توشكُ أن تندلع! ثم تتابع بحركةٍ تعرفها أغلب المتردِّدات على المكان، فترفع يدها لتصل إلى زجاج الإضاءة في الجزء الأعلى من الأبواب، وتُحرِّك المفاتيح عليه، فيُصدِر صوتًا قويًّا، يُحدِثُ ارتباكًا عظيمًا بين الجالسات، فلا تسمع إلَّا جملة «هيَّا هَي آنا طالعات»!

هذا إنذارها الأول، لتتيح لهنَّ أن يستَعِدْنَ أناقة الخروج من المكان، فيلتحفْنَ «جرودَهن» الدرناوية الناصعة البياض– سيتأهَّبنَ للمغادرة قبل أن يُضاء اللون البرتقالي في عينيها، فتعقبه صفارات الإنذار، وعندها مَن سيتحكَّم فيما سيصدر عنها من غضبٍ ممهورٍ بشتائم تخصُّها وحدها وتُعرَف بها.

لهنَّ بعضُ عُذرٍ إن تجاوَزنَ الوقت المسموح ببعض دقائق، فقد كُنَّ في تلك العشية يحضرْنَ «الشكرانَة»، وهو اسم مُتداوَلٌ لحفل المباركة في المستشفيات لمقْدِمِ مولودٍ أو لسلامةٍ من مرضٍ، أو من عمليةٍ جراحية وغيرها من أحوال المرض والمرضى. وفيه تُقدَّم المشاريب والحلويات، ويُختَم بتوزيع الشاهي الشهير بنكهة الورد، أو الزهر والنعناع... لكنهن يعرفنها ويَخَفنَها، فلا عُذرَ مهما كان ستقبله، وعليهنَّ أن يحترمن ساعة القدوم وساعة المغادرة وإلَّا...

كانت على مشارف الخمسين، دقيقةَ الملامح، تقصُّ شَعرها «كيرلي»على رأي شابَّات هذا الزمان، لا تهتمُّ كثيرًا بزينتها، لكنَّ ملامحها البدوية تُضيف جمالًا وقوَّة شخصية، وبعضًا من هَمٍّ قديم، مرسوم، ويكادُ يُبين! لولا أنها لا تسمح لأحدٍ أن يعرف أو يواسي، أو حتى يُبدي تعاطُفًا، أيُّ تعاطف؟ مَن يجرؤ على الاقتراب منها،أو حتى سؤالها: «كيف حالك؟».

يعرف أهل المدينة أنها ابنة السوريلَّات؛ فهُنَّ مَن أحضرنها وهي طفلة من البادية القريبة من «درنة»، واعتنين بها، وتربَّت معهنَّ تربيةً مختلفة عن أي طفلٍ آخر في عمرها، في ذلك الوقت، وفي تلك الظروف القاسية، من حروبٍ ومجاعة ويُتمٍ وقِلَّة حيلة... كبرُت «هنيَّة» –وهذا هو اسمها– تحمل على وجهها ملامح أهل بلادها، وتشاركهم نفس ديانتهم، وهذا جَمالٌ إضافي لجمال السوريلات، أمَّا ما بقي لـ «هنيَّة»، فهو لها وتعمل وفقَه.

تربَّت على قِيَم العمل والنظام، وتقديس الوقت، والنظرة المحايدة للناس من حولها في ساعات دوامها. «هنيَّة» لا تعرفُ أحدًا. «هنيَّة» لا تحبُّ ولا تكره، ولا تفرح ولا تحزن. «هنيَّة» أبدَلَت ذلك الخافق –الذي لا تتعامل معه كثيرًا مذ

أدرَكَت يُتمَها- بساعة وقت، تُنبّهها متى تصحو، ومتى تعمل، ومتى تشتم، ومتى تستريح.

لن تستطيعَ قراءة ملامح وجهها مهما حاوَلتَ، ثم مَن سيسمح لك أن تُطيل التأمُّل؟ «هنيَّة»؟ يا ويل مَن يفعل! فستحدجه بنظرةٍ قد تُصيبه بدوارٍ أقسى من دوار يائسٍ في بحرٍ لُجّيٍّ تقذفه الأمواج، موجة بعد موجة، فلا تُغرقه ولا تُسْلِمُه لشاطئ الأمان!

يعرفها أهل المدينة بالمشرفة على «بارتو 50»، وهو قسمٌ خاصٌّ بالولادة في مستشفى «درنة» العام، والإيواء فيه بمقابل. أمَّا باقي أقسام المستشفى فمجَّانيَّة، فالناس يعانون في نهاية الخمسينات من شظف العيش، وعملُ أهل المدينة مُقتصرٌ على الوظائف الحكومية البسيطة، فلم تكن في «درنة» إدارات حكوميَّة مُهمَّة، أو بنوك كبيرة، ويشتغل بعض سُكّانها «ترزيّين»، يخيطون البِدَل الرجالي الإفرنجية، وهم يجيدون هذه الحِرفةَ الراقية، أو يعملون بالتجارة البسيطة والصغيرة، أو في سوق العقارات، وتشتهر به بعض العائلات المقتدرة، وفيها بعضُ عائلاتٍ معروفة بالزراعة الخاصَّة، التي لن تعرفها إلَّا هناك، فهم يزرعون ما تطلبه المطابخ الدرناوية، بالإضافة إلى مزارع الموز، أمَّا الحبوب فتُزرَع خارج المدينة؛ لضيق المساحات الزراعية.

أعود لذلك القسم، الذي جُرِّبَ فيه عمل القطاع الخاص. كان على النزيلة دفع خمسين قرشًا يوميًّا نظير الإقامة؛ ولهذا سُمِّي «بارتو» -أو قِسم- خمسين. «هنيَّة» كانت زعيمةً لهذا القسم وحاكِمَتَه المطلقة، ولا أمل لأحدٍ أن يأخذ مكانها، فلا يوجد تداوُلٌ للسُّلطة فيه، ومَن يجرؤ هنا أن يطرح هذه الفكرة للتداول، أو حتى الحلم بها؟ «هنيَّة» ليست سيئة. «هنيَّة» تدير المكان بعقليَّةٍ أوروبيَّة، وأهل المدينة يَقبَلون بتسلُّطها ما دامت النتائج نظامًا ونظافة وتطوُّرًا للأفضل لهذه المملكة الصغيرة، التي تديرها هذه الشخصية الغريبة.

المعلومات عنها قليلة. وفي بعض الروايات يُقال إنها ربما قُتِل ذووها في غارة على أحد النجوع القريبة من المدينة، وأن السوريلات وجدنها عندما كُنَّ في مَهمَّة تطبيب جرحى الغارة، فأخذنها معهن، فكبُرَت بينهن وعملت في عملٍ شبيه بما يعملن، وشربَت الصنعة كلها، فأثبتت اقتدارًا، فأثارت إعجابهن وإعجاب أهل المدينة. فأسعدهم تَرؤُّسها لهذا القسم، الذي شَكَّل نواة القطاع الخاص الصحي ذلك الوقت.

«هنيَّة» نموذج حيٌّ لقصصٍ حدَثَت في بدايات القرن الماضي. كانت الحرب تأكل الأرواح، ومعها الأخضر واليابس، غير أنه من بين رمادها نبتت زهور رحمةٍ ومودَّة، شكَّلَت جَمالًا قاوم قُبحَ الاحتلال، وداوى جراح الناس، وضمَّ بين جناحيه قلوبًا صغيرة ويتيمة وعاجزة، فاهتزَّت وربت وأينعَت، وظلَّلت على من حولها. ظِلُّ «هنية» ظَلَّ يتبعُ المحتاجين للراحة من المرض، وكان وارِفًا ومريحًا رغم بعض قسوةٍ ظاهرة.

سلامٌ على روحها.. ولها ولسوريلات مدينتي مَحبَّة وتذَكُّر وامتنان، سيبقى ما بقي اللينُ وبَقِيَت الرَّحمَةُ في قلوب الناس.

* قسم الولادة.

«من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ»(*)

تقول: «كان أجملهم». ونتساءل بذهول: «وهل تعرفينه؟»، فتضحك بعلوّ صوتها: «وليش نعرفه؟»، فتزيد دهشتنا. «وماذا تحبّين فيه؟»، تقول: «كلامه سمح وزوله(**) سمح»! نفوّت الإشارة الأولى، ونتمسَّك بالثانية. «وين شفتي زوله؟»، فتردُّ: «عنده برنامج في التلفزيون، يقول في كلام يمسح الكبد!»، «وبعدين؟» نواصل إلحاحنا!، «وبعدما يمسح كبدك؟ تنتبهي لسماحته؟»، تضحك منَّا، وتواصل: «مش بس نا، الصبايا كلهن عاجبهن... سمعت انه صارت طلاقات في جرة آهاتهن، وهو يقول في الشِّعر، ومعنقر هذيك الشنَّة الحمراء على جبهته اللي تقول عاج!» (***).

«يا الله! ومصنَّفة حتى درجة بياضه؟»، تبتسم بخَفَر امرأةٍ تحتار في تحديد سِنِي عمرها -لحيويَّتها وجَمال تقاطيعها- وتردُّ علينا: «هذا أيام السهاري السماح مش توّا»، وقبل أن تردَّ بالهجوم على جيلنا كنَّا نواصل «مُنابَشَتها»(****) لتستريح وتُدلي بما لديها.

امرأة خمسينية في ربيع عمرها الثاني، ترتدي الحِرام الليبي بخطوطٍ عريضة، وبألوان تختارها بعناية، فهي لم تأتِ مرَّةً لبيت الطالبات بحِرامٍ لَبِسَته مرَّتين خلال أيام الأسبوع. لديها -كما تقول-: «حِرامات بعدد (زيزات) خوتها. كل (ولية) تخش علينا بالهدايا: حرام حرير لأمي ونا، وخواتي حرام معمل»(*****).

«كنَّا ثلاثة. وكانت فرحتنا بالهدايا تعادل فرحتنا بزيجة هذا الأخ أو ذاك، إلَّا أن أخي السابع كانت عروسته حالتها كويسة، فأحضَرَت خواتم ذهب وغوايش لوالدتي، فتميَّزَت عن الباقيات، واحتفَظَت بتلك المكانة حتى اليوم». وتُواصِل: «حرامات صبايا خوتي هن اللي نبدّل بينهن لما نجي نخدم هنا». هكذا أدلَت بإفادتها حين حقَّقنا معها حول التَّنوُّع في الألوان وخطوط الحرامات.

مُتزوِّجة بلا عَقِب، وقد مرَّت بسنوات كافرة، كما تقول، لم يتوقَّف لسانٌ عن السؤال «ممَّن؟»، وكنتُ أصمت. تقول: «في أيامنا كنَّا نخجل، فلا هو ذهب لطبيب، ولا حملني لطبيب، حتى وجدت نفسي في هذا العمر. لكنه راجل طيِّب مش في سماحة الشاعر، لكن الله يسامحه ويسامح عشرته».

تواصل: «يوصلني كل يوم هنا، ويذهب لحراسة القنصلية، اللي جنب بيت الطالبات. أحيانًا، ألمحه يتلصص على شبابيكن، علُّه يقتنص بعض جمال فيملأ عينيه. وعندما أطلُّ برأسي وأراه أتوعَّده عند العودة لبيتنا، فيفهم الإشارة ويعود

لعمله، مواصِلًا الحكايات مع زميله في الحراسة، وقد امتقع وجهه! وأواجهه بفعلته فيما بعد، فيدَّعي أنه كان مشتاقًا لي، فرفع رأسه في المبنى علَّه يراني... يحساب روحه فلان...»، وتردِّد اسم الشاعر، وتمنحنا ضحكة نكون بحاجتها.

كانت أمسيات الخميس مُميَّزةً بها، حيث تتاح لها فرصة البقاء معنا حتى ينتهي زوجها من مهامه، فذلك اليوم يوافق نهاية الأسبوع، وأعضاء القنصلية -بموظَّفيها وزُوَّارها من الرعايا الانجليز في بنغازي- يتواجدون إلى ساعة متأخِّرة للعب مباريات التنس، فتضاف إلى مُتَعنا في مراقبة وسامة العاملين هناك مشاهدة جمال ملابس لاعبي ولاعبات التنس، ورشاقة حركتهم في الإمساك بالمضرب، ومراقصة الكرة الصفراء الصغيرة.

تُشارِكنا سهرتنا الخميسية نحن أيضًا، فنعطيها «الدربوكة» لتتسلَّى، فتتمنَّع، ثم -وبعد قليل من الإلحاح- تمسكها بيدٍ محترفة، وتطلق حنجرتها لعنان السماء، وربما كان الحارس في

الجوار يستمع معنا:

«نار المرهونين

امعانا لكن صبّارين»(******).

لم يكن المرهون سوى الشاعر الذي أدار رؤوس النساء بأشعاره وبـ «شنَّته» المائلة فوق جبهةٍ في بياض العاج، كما كانت تقول أنيسةُ أيَّامِنا... تلك الأيام!

---

* "من ذكرى حبيبٍ ومنزِلٍ"، من معلقة "امرئ القيس"، والمنزل هنا بيت الطالبات ببنغازي.

** زولَهْ: بمعنى شكله الجميل.

*** الصبايا: ويقصد بها في شرق ليبيا النساء المتزوجات. معنقر: يميل الطاقية على جبهته بدلال. الشنَّة: غطاء الرأس أو الطاقية.

**** منابشتها: بمعنى معاكستها أو استدراجها للحديث.

***** زيزات خوتها: زوجات أخوتها. ولية: امرأة. حرام معمل: حرام عادي وليس حريريًّا، ونُسِج في مصنع وليس بشكل يدوي كما أردية الحرير.

****** المرهونين: جمع مرهون، وهي كلمة متداوَلة في شرق ليبيا، وتعني المرتبط من الجنسين بحبٍّ أو بزواج.

ليبيةٌ من الشرق

تلتقطُ عيناي صورة بعينها، من آلاف الصور، وتبحثان عن التفاصيل في شجرةٍ جلستُ في هيفها ذات «زردة»، في عشيَّات الصيف الطويلة، أسرح مع موجة كانت شاهِدةً على نزق الشباب ورعونته، وخوف أمَّهاتنا منها، فليس كل الموج طيِّبًا مثلهن.

يتسمَّرُ القلبُ على أبوابٍ تحرس بيوتًا أعرفها بابًا بابًا، وبيتًا تلوَ بيت. تأملُ أزِقَّة شَهِدَت تَسارُع خطواتنا الفَرِحَة، المنطلقة من أغلال الخوف والحذر، نكيِّلها جيئةً وذهابا، ونعتبر ما فعلنا تمرُّدًا، ولو في مراحله الأولى!

ليبيَّةٌ من الشرق. تتسارعُ دقَّات القلب ويعلو وجيبه، عند أوَّل زمَّارة تلاعبها أناملُ شابَّةٌ، تنقل إرثًا عامِرًا بالفنِّ والجمال والنغم، راسِمًا لوحة لوادٍ يشقُّ تلك الجنة قسمين، ويجمعهما إن أراد. يستحضر مياهًا رقراقةً، تندفع بإرادتها، لا يحدُّها إلا الأزرق المهيب، الذي يحضنها من الحدِّ إلى الحدِّ.

ليبيةٌ من الشرق. إن غنَّت «الفونشة»(*) ووريثات فنِّها، انتابني شعور أنَّهنَّ يُغنِّين لي؛ فأندمج معهنَّ، والقلبُ مبتهجٌ بمحبَّةٍ وبشوق لأيام كانت الدنيا مُقبِلَة وتنادي، وكنَّا نُلبِّي ونُسعد، فلا جرحَ يؤلمنا، ولا عينَ تملؤها الغيومُ، ولا خوفَ من قادم نجهل ما يريد.

ليبيةٌ من الشرق. تأسرني رحلة بالسيارة من «بنغازي» إلى «درنة». نجتاز «توكرة» الطيبة، نُقرِئُها السلام، ثم نرتفع مع «عقبة الباكور»، وتمدُّ السيارة باتجاه بساط أخضر حيث «المرج» العجيبة، مُرحِّبةً ومُهلِّلةً بضيوفٍ مسرعين يرسلون الشوق عبر نوافذ السيارة وشهقات الإعجاب بهذه الأرض الكريمة المنبسطة الممتدَّة على مَدِّ النظر.

ليبيَّةٌ من الشرق. تذهلُ سيارتنا وروادها، وتتردَّد في عبور ذاك الجَمال الرابض على جبلٍ يحضن أيامنا، وتاريخًا نعرفه وتُطلُّ «البيضاء» والقلوب براحها الممتد حتى «الأبرق» ومطارها، وكان ذات عُمرٍ يعرف شوقنا، ويؤكِّد أنه يهدينا الجمال وقُربَ الحبيبة، فلم يَعُد بيننا وبينها إلا «القبَّة» الطيبة المرحِّبة والبشوش، نبادلها المحبَّة والشكر، لأنها الودودُ، دائمًا، مهما تبدَّلَت الفصول، ومهما ادلهَمَّت سُحُبُ أيامنا.

ليبيَّةٌ من الشرق. ولم يَعُد بيننا وبين حَبَّة القلب إلَّا بضع قلوب متراصَّة، تفتح الطريق لتصل ما انقطع. وفي «درنة» وعنها يصعب الحديث ويعلو الشَّجن، وتتعالى نبضات القلب، وتصبح الشهادة فيها مجروحة، وماذا سأضيف؟ لا شيء، غير أنها ساكنة هذا الكائن الذي كنتُه وما سأكونه، إن كان في العمر بقية لنحيا ونكتب.

* الفونشة: كنية لمطربة شعبية شهيرة.

سيرةُ كرسي(*)

دخَلَت إلى بيت مهيب الشكل، عريق التاريخ، مرَّت عليه عائلاتٌ طرابلسية، وتناوَبَت، مرارًا، على سُكناه، ثم استقرَّ الحال بساكنيه الآن. هو بيت عزاء، يمتلئ بمعزّيات، يتجاذبن أطراف أحاديث، ويتذاكرن مناقب الرجل الكريم، ابن إحدى أعرق عائلات هذه المدينة، عاصر مراحل عديدة من تاريخها: عهد الاستعمار، وعهد الاستقلال، والعهد الذي تلاه. دخَلَت هذه السيدة إلى الصالون الصغير، مستطيل الشكل، وقد اصطفَّت داخله كراسي من خشب الماهوجني الفاخر، ناعمة الملمس، وكأنها ملمس حرير لا خشب، تحيط بصالون تركي المزاج والصنعة. ألقت نظرة على المكان، وكان غاصًّا بنساء ملتحفات «فراشياتهن»(**)؛ فهنَّ على عجلٍ، سيُقدِّمن واجب العزاء ويخرجن ليُتِحن لغيرهن الجلوس، وهكذا.

كان يقبعُ وحده في ركنٍ بعيد، ولم تمتدَّ له يدٌ، كان الكرسيَّ الوحيدَ غيرَ الشاغر، فدَنَت منه، ومدَّت يدها لتجذبه فحَرَن، أعادت الكَرَّة وأعاد الفعل فارتعَبَت، وتردَّدَت: هل تسأل النسوة من حولها عمَّا تراه، أم تصمت؟ فقد يصفنها بالخَبَل، وينجو الكرسي بفعلته.

ابتعَدَت مرتعدةً، وبها شكٌّ، فما جرى لا بُدَّ أنه جرى، وإلَّا ما الذي يربكها فتقف مذهولةً؟ غير أنها أعادت البحث، ووجدت ضالَّتها في كرسي آخر رحَّب بها، ودنا فَدَنَت، ورضي فأقبلَت، لكنَّ عينيها ما تركت ذلك المتمرِّدَ الحَرون، حتى دخَلَت ابنة المتوفَّى، وحدَجَت بنظرها صوب الجالسات، فصاحب السيادة يبدو قد حرَّكته يدٌ ما، وواضح أنه تعرَّض لاعتداءٍ غريبةٍ لا تدرك قيمة حضرة المبجَّل سليل الحسب والنسب.

دنَت الفتاةُ منه فبادلها نظرات الدهشة والعتب ممَّا حلَّ به، فأعادته لمكانه، فالتصق بأرضه، واستند للحائط، واستعاد وعيه وقد غاب جرَّاءَ ما جرى. هذا المتعجرفُ الذي لا يلين إلا لصاحبه، يبدو للرائي وكأن أشكالًا متجعِّدةً، أو متموِّجة، أو منقَّطة، أو على شكل قطرات المطر– تظهر وتختفي كلَّما زارته أشعة الشمس في ركنه الدائم، فيزدادُ بهاءً وكِبرًا.

وبينما غصَّ المكانُ بالمعزيات، هرب هو بعيدًا هذه المرَّة، ودخل تاريخًا آخر، ظَلَّ في ظِلِّه لزمنٍ طويل، ما برح يتذكَّره ويستعيده. فلا هو نسيه، ولا الزمان أنساه إياه.

كان سيِّده اسمًا كأنه نارٌ على عَلَم، وكان... وكان... كان كلَّما ناداه حاكِمٌ ليتولَّى وزارة يأخذه معه، يجلس به أينما وضعوه. وعندما ينسحب... ينسحب بكرسيِّه، لم يقترب يومًا من كراسيهم. كان ينفر منها فتنفره، والحبُّ محبوبٌ ومُحبٌّ، ولم يكن يومًا لا هذا ولا ذاك.

تقلَّد أغلب وزارات البلد وكرسيه معه، لا يأمن لعربَةِ نَقلٍ تأخذه، بل يضعه معه في نفس العربة التي تحمله لمكان عمله الجديد والطارئ. استشعر الكرسي العَظَمةَ، ولم يستشعرها صاحبُه يومًا! حدَّث أحد السُّفَراء صاحب الكرسي معجبًا بكرسيِّه، مُتعجِّبًا من لونه وزخارفه ودِقَّة صنعته، وكأنه تاريخٌ متنقِّلٌ من وزارة لأخرى، وسأله: لِمَ لَم يرَ مثيله في مكاتب زملائه؟ فجاوبه: لأنه لا مثيل له، ولا مثيل لهم.

عادا في إحدى المساءات معًا، توسَّل له: «أنا خلاص... تعبتُ، وتعبتَ، أعِدني لمكاني وعُد لمكانتك... لا مجال للمزيد!».

سمع وما سمع! وتوالى –في اكتمال القمر كمال الجمال، في ساحة بيته الداخلية المكشوفة –حديث المكاشفة بينهما، فاستراح، فلاحَت ابتسامة، فخفَّ التعب وعلا وجيب القلب، فتقدَّم الكرسي لصاحبه فجلس وجالَسَه، وتمَّ الوعد أن لا عَودٌ، وأن أوان الكُمون قد لاح، وأن القادمين الجُدُد لن يطرقوا بابه. وحتى وإن فعلوا فسينكرون عليه هذا الكرسي، إن اشترط رفقته، بل وربما أحالوه رُكامًا.

أرعبته الفكرة، فخاف وأخفى رعبه، وانكفأ واكتفى، وأوصد بابه بعد أن أعاد رفيقه إلى مكانه ومكانته العَليَّة، وبعد أن جالسه وهدَّأ من روعه.

دخل إلى غرفته، وخرج منها في الصباح محمولًا على الأكتاف. ضجَّت المدينة على رحيله، ورحلته الشريفة العفيفة. وجاءت النسوة يُعدِّدنَ مناقبه، ويواسين بناته. وفي خِضَمِّ الألم لم يُعِرنَ انتباهًا للمكلوم، وما أظهر من حزن، وما كتم، حتى جرى من المرأة ما جرى، فأبدى اعتراضه؛ فليس بعد صاحبه صاحبٌ، ولن يلين لطلبٍ للجلوس ولا للراحة من أحد.

وهذا ما كان من سيرته...

---

* نظرة واحدة مني لهذا الكرسي وبعض همس حول المكان وعراقته واستقبال صاحبه لرجالات الوطن في بداية تأسيسه راكَمَت هذا السرد، فما هو إلَّا ابنُ خيالات السَّارِدة!

** فراشياتهن: الفراشية أو الجرد هو لباس الخروج الأبيض للنساء الليبيات.

خبزٌ ونساء

كنتُ جالسةً بمواجهة جَمالٍ لا يُقارَن بشيء، ولا بأي جَمال تعرفونه. كانت مُمدَّدة بغنجٍ، وبها بعض انتفاخ. وجهها به حُمرَةٌ واضحة، وكأنه تعرَّض للفحة لهب، فبَدَت كخدَّيْ جميلة وقد تلوَّنا بحُمرةٍ خفيفة فشعَّ حُسنها. الخطوط المحدِّدَة للمسها واضحة، ولا تفسير لها سوى مزيد من الإغراء. وسيرتها في هذا المجال لا تَخفَى على أحد، فلا صنعة لها إلَّا الإغواء، وتاريخها مزدهرٌ بقصصها، سليلة الحسب والنَّسَب.

تحتها مباشرة جلست سيدة أنيقة جميلة الملامح، ببعض حَوَلٍ في العين اليسرى لا يُرى، لولا حظها العاثر الذي أوقعها بي! ترتدي تنُّورة كاروهات بنفسجية، يبدو أنها لأحد كبار المصمِّمين، أو هكذا تخيَّلتُ، أمَّا الچاكيت فسادة من نفس اللون، والشَّعر قصير مُصفَّف بطريقة لطيفة، والنظارات مُنتقاة بعناية. واكتملت الأناقة بخاتم من الذهب الأبيض، بفصوص لا بُدَّ أنها ثمينة، مع عِقدٍ بنفس اللون والفصوص.

لم يكن لون المقاعد بعيدًا عن جَوِّ الأناقة والجمال السائد، فلونها أزرق فاتح، بخطوط في بعض أجزائها وسادة في أجزاءٍ أخرى.

تمسك بالهاتف منذ دخولها، لم تتوقَّف حتى بعد انضمام زوجها –على ما يبدو– للمكان، فهي لم تُعِره انتباهًا، ولم تتوقف عن الحكي! انتبَهَت للَّهجة –ولم تكن لأهل العاصمة– التي تصلني بلا محاولة مني لاستراق السَّمع. كان على كل حال أسئلة عن الأحوال، وبَثَّ الكثير من الأشواق؛ لعلَّها قادمة من خارج البلاد، وهي هنا لفترة، وسوف تغادر لموطنِ مَن تبثُّهم شوقها للِّقاء. ويا لهذا الشوق الذي أتعَبَنا، أنتِ –يا رفيقة المكان– تُفصحين، وأنا أُغالِبُه، فـ «مثلي لا يُذاعُ له سِرُّ(*)».

كانت اللوحة فوقها مُغريَةً، فإلى جانب الحسناء ذات الخطوط، تظهر أخرى دائرية الملمح منتفخة، كأنها تترفَّع عن وجودها في ذلك المكان، بعيدًا عن موطنها ومبدعيها. اسمها المتداوَل (Pane Casareccio) أو: «صُنْع البيت»، لنقل ابنة وصنعة البيت، بل وإرث عريق لمبدعيها الطَّليان، ومطابخ بيوتهم، على كل حال، امتداد لذوقٍ رفيع، عمره بعُمر حضارتهم ومزاجهم المتوسطي الرائق والحيوي. كانت تراقب نظراتي الولهى، وتكاد تنطق لتنبِّهني أنَّها مُجرَّد خيال لرسَّام أذهلتني رسوماته هذه، وكأنها تقول لي «لا تتعبي؛ فشوقك بلا طائل»!

ذكَّرَتني بخطوات رشيقة، بكعبٍ حذاء عالٍ وبجسدٍ عَفيٍّ، لمتسلِّلة من دوشة البيت وطلبات أهله، التي لا تنتهي إلى شوارع روما يتلقَّفني الجَمالُ من ناصية لأخرى، أستمتع بنسمات عليلة، ومشهد التاريخ يُطلُّ على الناس المزهوَّة بميراثه، وأصل لمحل «فِيتِّي»، أحيِّي صاحبه، فيبادرني بسؤال تأكيد، فأومئ بالإجابة، فيقطعها نصفين، ثم يقطع رُبعًا ويلفُّه، ويسأل: «والسينورينا؟»، فأجاوبه: «كالعادة... (بيتسا بيانكا)»، فيبتسم لهذه العنيدة الصغيرة التي لا تحبُّ الطماطم ولا الأجبان وهي في قلب روما. أتبادل معه الحديث، ويسألني عن أهل بيتي، وأبادله السؤال والتَّحايا، وأغادر عائدةً وهي معي. هذه التي تحدِّق بي الآن مستغربةً حالي.

تحت تلك اللوحة أرى نظرةً ما فأرتَبِكُ، وأستعيدُ وضعي السابق، وكأنه لا يعنيني شيءٌ ممَّا يجري أمامي. وقالت لي نفسي –التي لا تترك صورةً تمرُّ دون ملاحظة داخلية– هذه النظرة ربما شبيهة بنظرتك. كلُّنا نشبه بعضنا. ربما تقول لها نفسها هي الأخرى «مَن هذه السيدة، التي تجلس قُبالتي، ولا يبدو عليها أنها من أهل البلد؟»، وربما هي الآن تحاول التعرُّف عَليَّ، ومن أي اتجاه رَمَتني الريح، وأجلَسَتني على ذلك المقعد، وفي مواجهةٍ مع اللوحة ومعها.

لكنَّها، ورغم نظراتنا المتبادَلة، ما تركَت جهاز الهاتف، ولا أعارت انتباهًا للرَّجُل، فخرج ثانيةً؛ ربما للتدخين، أو ليستمتع بنور الشمس؛ فهذا النهار كان مُشمِسًا بنسمات باردة. نحن، على كل حال، في ثاني أيام العام الجديد، وفي عِزِّ شتاءٍ متوسِّطيٍّ، طيِّبٍ ولطيف في أغلب أوقاته.

كانت –إلى جانب الحسناء– ابنة البيت وصنعتَه الفاخرة. قطعتان ملفوفتان بطريقة كلاسيكية مُلفِتة، والكتابة بفرنسية واضحة بالنسبة لي، فهي ابنة عمِّ الإيطالية من بعيد، ولنَقُلْ من قبيلتها، وجدودهما الأوائل متوسِّطيُّون جدًّا.

هي الخميرة القديمة بأنواعها إذن، وهي لا تنتسب لخميرة هذه الأيام، ولا معرفةَ بينهما إلَّا في بَثِّ فقاعات الهواء داخل العجين، فتنفخه فيصبح ليِّنًا وصالحًا للأكل بعد خَبْزه.

انزلقت مني الطفلة، وغادَرَت المكان إلى بيتٍ بعيد على ضفاف المتوسط هو الآخر. كانت الخميرة إحدى مُعجِزاته. تراها وتذهلها كل يوم. عندما تطرق بابهم إحدى الجارات، لتسأل هل لديكم خميرة؟ وتنطلق الطفلة مستفسرة، فتقطع أمها قطعةً من العجين وتلفُّه في ورق رمادي اللون قويِّ الملمس، فتأخذه وتعطيه بسعادة للجارة التي تَعِدُها بِـ «قنّان»(**) عندما تحمي التَّنُّور وتخبز. وكان التساؤل مصحوبًا دائمًا بحيرة العلاقة بين هذه القطعة الصغيرة من العجين وبين العَطِيَّة التي ستحصل عليها من الجارة: محبوبها القَنَّان، بروائح ماء الزَّهَر، التي تغمر أنفها ومُهجَتها، وهذه الحبوب السوداء والرمادية التي تصنع معجزةً اسمها خبز الحبايب، بل خبز الغوالي، خبز ساكني القلب.

أعود لجلستي بعد الجولة التي أعادتني لمطارح لا تتركني لحالي أبدًا.

كانت اللوحة تُوالي بَثَّ حكاياها، والسيدة تحتها مباشرة تواصل حكايات لا تنتهي عبر هاتفها، وقد عاد الرجل يحمل مجلَّةً ما، ويبدو من لمسه لجيوبه أنه قد حاسب «الكاشير»، ويتأهَّب والسيدة للخروج. وقفَت ورفعَت رأسها مُتأمِّلةً

اللوحة المباركة بحملها، ثم التقت أعيننا، فبادَرَت بتحيَّةٍ، فرَدَدتُّها بابتسامة، وقد أسعدني ذلك جدًّا. بقيَ أن تعرف رفيقة لوحة الخبز، أنني –وبهذه العادة التي تلازم قلمي– قد قدَّمتُها لقُرَّائي، فأحسنتُ التقديم.

---

* من قصيدة "أراك عصيَّ الدمع" لأبي فراس الحمداني.

** القنَّان: خبزة بحجم صغير، مخصَّصة للأطفال.

سيّدةُ المطار

سألتني عن مدينتي –ولا علاقة لعملها بهذا السؤال–، غير أنني عرفتُ السببَ، بعد أن حدَّدتُ لها هويَّتي الدَّرناوية، فأردَفَت باسِمةً: «كثَّرتوا علينا يا عرب درنة»! فهمتُ من السياق أنها تقصد كثرة الرُّكّاب الدَّراونة! أدخَلَتني غرفة التفتيش الخاصة بالجنس اللطيف، وفتَّشَتني بدِقَّة بعد أن اعتذَرَت قائلةً: «ما نفعله من أجل سلامتكم»! فشكرتُها، والتحقتُ بصالة الانتظار. سألتقي بهذه السيدة مرارًا، وستُظهِر علامات صُحبَةٍ خفيفة، فأرى ابتسامتها دائمًا –على غير عادتها مع الآخرين– عندما تراني، فأبتسم وأُحيِّيها، وتُفتِّشني، وأشكرها...

أعود لذلك النهار الطويل، فما إن انتهت السيدة من مَهمَّتها، حتى توجَّهتُ لما يُسمَّى بصالة الانتظار! وفي طريقي إليها سأمرُّ بمكان تفتيش الرجال. كانت أصواتٌ مرتفعة وجلبة تثير انتباه الركاب، فتلفَّتُّ أنا أيضًا، فإذا بشابٍّ جامعيٍّ يحاور ويداور بلا فائدة، ليُفهِم رجال أمن المطار أن الصندوق الذي يحمله لا كتابَ غريب فيه، وأن ما فيه كُتُبٌ للمنهج، وكانت معه في «درنة»، وهو عائدٌ لـ «طرابلس» لأداء الامتحانات. لاحظتُ وجود ثلاثة خبراء بشباشبهم، يتبادلون الكتب بعد فحصها فحصًا دقيقًا! ويصرُّون على صاحبها ألَّا يأخذها إلَّا بعد التأكُّد من عدم خطورتها!

هدأت الضَّجَّة، ولم أعرف ما الذي جرى للطالب المتورِّط بحمل منهجه الدراسي في رحلة داخلية! التحقتُ بالرُّكّاب الجالسين في الصالة التعيسة، وكان بصحبتي زوجة عمِّي، والتقيت براكباتٍ من «درنة»... كنَّا في تلك الأيام لا نسأل عن موعد الرحلة؛ فهو في علم الغيب، فإن تكرَّموا علينا ونادى المنادى أو «البرّاح» بيننا بأنَّ الطائرة في الأجواء، وستُقلِع بعد ساعة مثلًا فهذا تأكيدٌ على أن الرحلة «صاير منها»، وإن ساد صمتٌ مُطبِقٌ فالمعنى أن الرحلة «صاير منها» أيضًا، لكنَّ الموعد في علم الغيب. ذلك النهار كان موعد الرحلة في عِلمِ الغيب. كان الركاب والراكبات يتبادلون الحَكيَ هَمسًا، إلَّا زوجة عمِّي، التي توقَّفَت عن السؤال، فالسيدة مصابة بمرض السُّكَّر، وتحتاج لتناول شيء يقيم أوَدَها، فتذكَّرَت، أخيرًا، أن في مَعيَّتها زاد الطريق، ففتحت «الساكُو» المبارك، وأخرجت «تُرمس» شاي –وكانت أعدَّته كاحتياطات يقوم بها المسافرون، في ذلك الوقت، عن طريق ذلك المطار الأعجوبة– وأخرَجَت خبزة التنُّور التي تحملها كهدية لشقيقاتي المقيمات بطرابلس! ستتأجَّل الهدية؛ فالأمر طارئ، ولا بُدَّ من التدخُّل السريع...

دارت الطاسات وبها قليل من الشاي على الرُّكّاب المتواجدين حولها، ومعه قِطَعٌ من الخبزة المنكَّهة بالزهر، وسَرَت بين المنتظرين نفحات بهجة وسرور، فانطلقت النِّكات على الحال الراهن في هذه الصالة البائسة، وحال المنتظرين للمجهول.

وضحكت إحداهنَّ وذكَّرت الرَّكَّاب بأن غدًا «ميلود» (المولد النبوي الشريف)، وسألت زوجة عمِّي: «ازعَمَهْ انحصلوا عصيدة ياحاجة؟!».

فأجابتها الأخيرة: «نعم، العسل معاي، والسَّمن على عرب الابرق، والدقيق انجيبوه مالبيضاء!»، وانطلقت ضحكات الركاب، فتناسوا لسُوَيعاتٍ تَعبَهم وانتظارهم وقلقهم وبرودة الطقس التي تفري العظام، وانهماك الموظفين في محادثاتهم الزاعقة، بلا إبداء أدنى اهتمام بهذه الصالة ومرتاديها، الذين لا حول لهم ولا طول...

صار من الرحلة بعد انتظار طويل، ووصلنا لبيوتنا، غير أن ما وجدته في كيس خبز التُّور، الذي كان بيدي، والذي أعطته لي شقيقتي أثار رعبي. وتخيَّلتُ لو كانت تلك الرحلة دوليَّةً فماذا سيحدث لي! كان في الكيس سِكِّين لقطع الخبز، كبير وحادٌّ ومُخيف، ويبدو أن شقيقتي نسيته وهي تقطع فردة خُبز التُّور نصفين... تذكَّرتُ تلك السيدة التي قامت بتفتيشي وتذَمُّرها من عرب «درنة»، كيف تلمَّسَت كيس الخبز بحرفيَّةٍ وغفَلَت عن ذلك السكين! سلامٌ عليها أينما تكون، ولمطار «الأبرق» حنينٌ وتوقٌ لتلك الأيام الخوالي... يا لها من أيام!.

النقاصة(*)...
وأنا أهتفُ «يا سِربَ الصبايا ألف آه... هل رأيتُنَّ حبيبي؟»(**).

يَجِنُّ الليلُ على الحي الهادئ، فتختفي الضحكات التي تملؤه نهارًا، بالتحديد بعد العودة من المدارس وعند خروج زهرات ربيعه إلى الشارع، يلتئمن في جلسات صغيرة أمام بيوتهن، يحكين الحكايات السريعة؛ فلا وقت لحديثٍ طويل.

لا زال النهار قصيرًا، وهو يودِّع ليالي الشتاء الطويلة ونهاراته المستعجلة، وكأن الظلام يعدو خلفها ليلفَّها ويسلمها لصباحٍ يأتي بعد ليل طويل وبارد.

«درنة» في بداية الربيع أو على أبوابه، نسماته الهادئة تلفُّ المدينة، وعَبَقٌ خاصٌّ يرسل أريجه ليزيّن هواءها وبيوتها...

تُقبِل مَرِحةً وجميلة، وإن بانت ملامح حزن تحاول أن تخفيها، فليس هذا وقته. تجتاز الباب الموارَب بعد أن طرقته طرقاتها المميزة وتدخل، «خير يا هوه»(***)، وتردُّ صاحبته: «خير ومرحبا»، وتأتيها مُقبلةً بحبِّها وترحابها وسعادتها بالضيفة وبجرابها الثمين. «تفضَّلي»، تقولها مُرحِّبةً، وترد الضيفة العزيزة: «سَلمتِ... ما علي مقعد، وراي حيشان اخرى»(****).

وتصرُّ صاحِبةُ البيت أن تُبقيها لتشربَا معًا طاسةَ شاهي. فتحضر «العدالة»(*****) وتبدأ في طقسها المحبَّب. الطاسة الأولى قليلة السُّكَّر، كثيفة بعض الشيء، وعندما ينتهينَ من شربها تضيف قليلًا من الشاي للبراد وبعض الماء، وتعيده «للكانون» ليواصل غليانه لمدة أقصر، فتجهِّز النعناع لتلقمه للبراد، وهنا تُخرِج الضيفةُ جِرابها المبارَك وتعطيها شيئًا منه لتضيفه للشاي ويصاحب النعناع، قائلةً: «كل سنة ونحنا طيِّبات... هذا أول قطاف للزهر».

فتسعد صاحبة البيت وتفعل ما قالته لها. ويزهر البيت كله في لحظة فارِقةٍ تضيف للأعمار جَمالًا وبهاءً وأريجًا لا يعرف الزمنُ مَحوَه أبدًا. تسرع السيدة بفتح جرابها بحركة معروفة لزبائنها، وتسأل صاحبة البيت: «تريدي كم نقاصة؟».

---

* النقَّاصة: وحدة قياس وهي عبارة عن علبة طماطم أو تونة، تَزِن 2 كجم أعيد استعمالها.

** من قصيدة للشاعر الراحل "علي الرقعي": "قصيدة حب إلى أصدقائي".

*** خير ياهوه: تحية قديمة ومحبَّبة.

****ما علي مَقْعَدّ...: بمعنى أن لا وقت لديها.

***** العدالة: عدة إعداد الشاي.

ذات رفقة
(لندن 2010)

استعدَّت لليلَةٍ جميلة منذ استيقَظَت.

جهَّزَت نفسها سريعًا لتلحق بإفطار الفندق، الذي يطلُّ على شارع حيويٍّ مليء بالحركة وبالوجوه السعيدة، أو هكذا تخيَّلَت... دخَلَت المطعم، وكان مليئًا بالنُّزلاء، وضَعَت حقيبتها التي تحبها على المائدة المحجوزة لها، وألقت التحية على مجموعة من السيدات اللاتي ينزلن في مثل توقيتها دائمًا.

يتبارين في إظهار أناقتهن كما تفعل هي: عِقدُ اللؤلؤ الأبيض الذي تحبُّه، وبلوڤر صوفيٌّ بألوان زاهية. ترتدي هذا الصباح بلوڤر بلون الأزرق الملكي، تعشق هذا اللون، ويسعدها انعكاسه على بشرتها، يمدُّها بحيويَّةٍ مَصدَرُها إعجابها بأناقتها ربما، أو بسعادتها لتواجدها في هذه المدينة، التي تقضي فيها نهاية العام دائمًا. رفيقات المكان يشاطرنها السعادة ذاتها، يتحرَّرن من المسؤوليات، يستيقظن باكراتٍ بلا مشقَّة، يرتدين ما يعجبهنَّ بلا استعجال من أحد، وتجلس كل واحدة وحدها، سعيدة على مائدتها، سعيدة برفقة ذاتها تتناول إفطارها، وتستمتع بقهوتها، وتستعدُّ للخروج لمتعة لا تضاهيها متعة: السير في شوارع لندن، بلا ضجَّةٍ من ولدٍ، أو إزعاجٍ من رفقة.

كلهن أنيقاتٌ هذا الصباح، ولصدفةٍ جميلة يتحلَّين بعقود اللؤلؤ، ويرتدين البلوڤرات الأنيقة بألوانٍ زاهية. صاحِبتُنا ترتدي لونها المفضَّل، والأخرى برتقالي، وواحدة بنفسجي، وكأنهن فراشاتٍ في ربيع العمر الثاني، يتبادلن المؤانسة والتحايا والأمنيات الطيبة... تنهي إفطارها، الذي تكسر فيه قواعدها الصارمة، تأكل البيض، وتحتسي القهوة مع «الكورنيتُّو»، تجرِّب مُتعة الخروج على قوانين حياتها القاسية، تُحيِّي رفيقات الصباح على وعد اللقاء في المساء، وترتدي معطفها الثقيل؛ فالطَّقس لنديٌّ، وعليها مواجهته.

تغادر الفندق المطلَّ على الشارع الجميل وتنتظر التاكسي ليُقلَّها لوجهتها، ستقسم المشوار -كعادتها- بعضه في العربة وبعضه مشيًا على الأقدام؛ فلا يصحُّ في هذه المدينة المدلَّلة أن نكتفي برؤيتها من نوافذ السيارة.

يقترب التاكسي وتطلب وجهتها، فيُصحِّح نُطق اسم المكان، ولا تأبه، وتعيده على مسامعه كما تنطقه هي، فيبتسم الرجل ويرحِّب بالزائرة المناكفة! فتح حديثًا لا بُدَّ أنه معتادٌ عليه: طقسٌ مُمطِر، فتردُّ: «نعم، لكنه رائع»، فيردُّ بنظرةٍ

استغراب! تحب هذا الطقس مُذْ كانت طفلةً، وتعشقه عندما يكتمل جَماله مع طريق ممهَّدة، وشارع نظيف، ومبانٍ تنبئ بعراقة الماضي.

تترجَّل من العربة وتتمنَّى يومًا سعيدًا للسائق، أمَّا لها فالأمنية تتحقَّق في كل لحظة تقضيها في هذه المدينة. تقف للحظات، وتعبر بعينيها كل ما يحيط بها، المغازات الضخمة، التي تتفنَّن في إغواء العابرين، والشوارع الملوَّنة بالحياة تفعل أيضًا، أمَّا الورود فلا حلَّ لها إلَّا التأمل في هذا الجمال الكثيف، الذي يحيط بها، ويحملها على بساط ورديٍّ عابقٍ بروائح عطرٍ تحبه وتضعه دائمًا، أيُّ روعة!، وهذه الوجوه التي تراها يرتسم الجمال والسكينة وعشق الحياة على كل تفاصيلها. تُصاب بحيرة السؤال: هل الجمال يمنح السكينة أم السكينة تلوِّن الملامح بألوانها الزاهية؟ تتأمَّل وتتأمَّل، وتمتلئ العين، والقلب بالحبور، تغادر المكان، وتنطلق في مشية سريعة تحبُّها، عندما تكون خارج بلادها، تتخيَّل لو مشتها هناك لجرى أمامها الناس خوفًا، أو استغرابًا. تضطرُّ للسفر لتمارس ما تحب فعله بلا عيون ترصد.

تشتري الهدايا لرفيقاتها، وتكتب لهنَّ أمنياتها بقضاء ليلة ممتعة سعيدة وعام مقبل بالفرح، وتعود مشيًا، تغيِّر الطريق زيادة في تأمُّل التفاصيل: تفاصيل كل شارعٍ تعبره. تختلف التفاصيل وتلتقي عند الجمال فلا تختلف... هل للجمال سطوة؟ نعم له سطوة، وسُلطة، سُلطَته الوحيدة التي تُطاع فتلوِّن الأشياء حوله بألوانها.

تعبر الشارع الكبير وتقترب من منطقة «ماربل آرش»، تتأمَّل القوس بروعة تفاصيله، «قوس الرخام»، أو (The Marble Arch)، هو قوس نصرٍ مبنيٌّ من الرخام الأبيض، يقع عند تقاطع «أوكسفورد ستريت»، و«إدجور رود»، و«بارك لين»، حيث «السبيكر كورنر» في زاوية «الهايد بارك» الأقرب لقوس الرُّخام. تواصل السير وحيدة وسعيدة وجميلة. تحب ملامحها، تتأمَّلها أحيانًا بزهوٍ مَن يملك الدنيا، وتسخر أحيانًا من نفسها: «ما الذي يجري يا امرأة؟ انظري حولَكِ، واتركيها هذه التي أتْعَبتِها تأمُّلًا وحديثًا وعتابًا وحبًّا. دعيها وشأنها، وانظري للناس من حولك. اشتاقي لها قليلًا. دعيها تعاتب إهمالَكِ ولو مرَّة!». دخَلَت «الهايد بارك»، وكانت -رغم الطقس البارد- ممتلئةً بخلق الله من كل بقاع الدنيا، كلٌّ يمارسُ ما لا يقدر على فعله في بلاده، هذا يخطب ويشتم، والناس حوله يضحكون، أو يشتمونه ولا يبالي، وآخر يعزف، وغيره يقرأ أشعاره لنفسه... لا أحد يمنع أحدًا؛ فاستحالت «الهايد بارك» رئةَ البشر التي يتنفَّسون من خلالها هواء الحرية، أو هكذا يتخيَّلون.

تجلس في أحد المقاهي، وتطلب فنجان القهوة الثاني هذا النهار، وتبدأ في فرز ما اشترت من هدايا لرفيقات إفطار الصباح في الفندق الذي تقيم فيه.

ثلاث رفيقات وهي رابعتهنَّ... لا يفعلن أكثر من التحايا والتمنّيات الطيبة من بعيد، وتبادُل نظرات الإعجاب، أو الأُلفة التي تسري بينهنَّ مُذ التقين هناك. هذا الصباح كانت وقفتهن في طابور انتظار الأومليت المفضَّل لكل واحدة منهن، جرى الحديث، لأوَّل مرَّة، وسَرَت عبارات التهاني بالعام الجديد، الذي سيحتفلن به مساءً. جرَّبَت أن تطرح فكرةً، رغم

أنهن لم يتعارفن بعدُ. تساءَلَت أوَّلًا: ما هي برامجكن لهذه الليلة؟ فسَرَت ضحكةٌ بينهنَّ، وتبيَّن أن وجودهن في لندن هو الاحتفال في حدِّ ذاته، أما الباقي فتفاصيل...

فأسرعت الفكرة إلى ذهنها، بل وخرَجَت منها دون ترتيب، وسألَت: «ما المانع أن نرتِّب لعشاء، ثم نجتمع في غرفة إحدانا نحتفل بالليلة الأخيرة من العام، ونفتتح ليلة وليالي جديدة من عمرنا، ونقدِّم أنفسنا لأنفسنا؟»، فسَرَت ابتسامة رضا وقبول، وتَواعَدن على اللقاء في مطعمٍ قريب.

كان المكان الذي قرَّرن الذهاب إليه غير بعيد عن الفندق؛ فآثرن الذهاب مشيًا. أربع شابَّات في ربيع العمر الثاني، يتزيَّنَّ لتوديع عامٍ من أعمارهنَّ وليستقبلن ربيعًا آخر، يضاف إلى كل ربيعٍ عِشنَه وأسعدَهُنَّ. كان المطعم الإيطالي ينقل احتفالات دبي بتوديع واستقبال عامٍ جديد، وكان الموجودون مشدوهين بما يرون، وقد غفلوا حتى عن الأطباق التي أمامهم. جلسن وأحضر النادل الوسيم قائمة الطعام مبتسمًا ومُرحِّبًا بالفتيات. فغمرهن بالسعادة، وحضر الطعام، وأقبلن عليه، وانتشر في المكان عَبَقُ إيطاليا وسحرها.

غادرن عائداتٍ قبل أن تنطلق احتفالات المدينة. كانت الشوارع خالية من السيارات، والناس تتَّجه نحو منطقة «لندن آي»، تجَمُّعِ المحتفلين والألعاب النارية، أمَّا الفتيات فأخذن طريقهن إلى الفندق، وبالتحديد لغرفتها.

سَرَت أُلفةٌ بينهنَّ حين دقَّت «البيج بن» دقَّاتها الاثنتي عشرة مُعلِنةً بزوغ عام 2010، وسَرَت الضحكات والدهشة وهُنَّ يشاهدن سماء المدينة تتزيَّن بألوان الفرح... ضَحِكنَ وتَعارَفن وتمنَّين لأعمارهنَّ ربيعًا بلا انقطاع.

وفي صباح اليوم التالي كُنَّ الأربعة يتناولن إفطارهن –مخترقات كل قيودهن الصارمة ومحظورات الطعام– مجتمعات على مائدة واحدة، يحتفلن برفقة وبصداقة وُلِدَت في أركان هذا الفندق، وهذه المدينة، وهذا العام الجديد، وفي هذا العالم الطيب جدًّا...

حكاياتٌ من سِفر الاغتراب (1)
«أم تكليف»...

كان صباحًا بغداديًّا بحالات طقسه الغريبة، في ذلك الوقت من السنة، وكنَّا بمنتصف أكتوبر،حيث يتبدَّل فجأة من طقس قاسٍ شديد الحرارة إلى طقس بارد، بل شديد البرودة. كنتُ أتأمَّل منظر الحديقة وقد اكتسى عشبها بغطاءٍ شفاف من الزجاج، هكذا بدا لي المكان.

كنت أتأمَّل مذهولةً ظِلَّ البَدَن واقفًا هناك، بينما القلب يتجوَّل في بُقَعٍ بعيدة، سكنتُها واختلَفَت شتاءاتها بين المعتدل والشتاء الأوربي الصعب، وبين مدينةٍ كان شتاؤها يَحرنُ أحيانًا، ويتمنَّع أحيانًا أخرى ولا يزورها إلَّا بعد أن يقنط أهلها من مواعيده التي لا ثبات لها.

هُنا في بغداد يغادر الصيف بلا مظهر وَداعي، فهو لا يتمَهَّل، ولا يبدِّل أحواله بلطفٍ خريفي مثلًا، لا يفعل ذلك، بل يمضي سريعًا، فيعقبه في اليوم التالي الشتاء ببرودته الغريبة، كغرابة هذا الصباح النَّديّ.

نداوةُ الصباح غطَّت البساط الأخضر، فغفا تحتها لساعة أو أكثر، ثم تبدَّدَت وذابت، وأعطته أجر الإقامة بهجةً وإشراقًا ولونًا ناصعًا شديد الجمال.

بينما أقف متأمِّلةً، سمعتُ دقَّات على الباب الخارجي، وفي بغداد لا أسوار عالية لبيوتها، وأبوابها الخارجية قصيرة، لا تحجب ما خلفها أو أمامها.

رأيتُها سيدة في منتصف العمر، يغطيها السواد، ولا يبدو منها إلَّا بعض من وجهها الموشوم بنقوش جميلة تشبه نقش وجوه النساء في بلادي في الماضي القريب، أما تقاطيعها فتشي بالطيبة وبضيق الحال وصعوبته. أدخلتُها، فجلَسَت على عتبة الباب المؤدي للحديقة، وقبل أن أتفوَّه بكلمة سألتني: «عندك ولَّاعة؟»، وكان الحال حال صيام، فابتسمتُ وفهمَت ما يجري، فاستدرَكَت قائلةً: «لا يُفطر... لا يُفطر، أنا متعبة وتعيسة وهذه –وأشارت لسيجارتها – تعينني وتسلّيني».

أعطيتُها ما أرادت، وسألتني: «تحتاجين مساعِدَة؟»، وفهمت سبب زيارتها. ورغم صِغَر بيتي وعدد أفراد عائلتي إلَّا أنني وافَقتُ، لِمَ لا؟ لنتعاون، هي وأنا نواجه مصاعب وحياة متقلِّبة، وإن اختلَفَت في تفاصيلها.

ظلَّت هذه السيدة معنا، تُطلُّ علينا يوميًّا، تقوم بعملها وتمضي. عشتُ معها خوفَها ورُعبَها على أولاد جيرانها؛ فهم يقاتلون العدوَّ كما تقول، وكنتُ أواسيها، وفي قلبي الكثير -كصندوقٍ أُغلِقَ خطئًا وضاع مفتاحه- غير أن بساطتها لا تعطيني مجالًا لنتجاذب أطراف الحديث.

كانت نشيطة جدًّا، كل صباح تفتح باب الحديقة -نحن لا نغلقه؛ فليل بغداد آمن- وتحضر الصمُّون(*) العراقي، وتعلِّقه على الباب الداخلي وتمضي لحالها.

سألتني مرَّة: «تحبّين خبز التنُّور العراقي؟»، فأجبتها: «طبعًا، غير أن خبز مدينتي وأهلي به بعض اختلاف»، فقالت: «اعجنيه كما تحبّين، وأنا أخبزه لك عندي»، ومنذ ذلك النهار ومدينتي حاضِرَة على المائدة بطعم خُبز التنُّور المنَكَّه بقطرات الزهر والكمُّون الحلو والأسعد(**).

ذات نهار،جلَسَت معي وكنت أتابع الأخبار عن الانتفاضة الفلسطينية. فسألتني: «هاللي يكاونون(***) منكم؟»، وكانت تقصد «هل هم ليبيون؟!»، فابتسمتُ، وأجبتُها: «نعم، هم منَّا وعلينا يا (أم تكليف)».

كان هذا اسمها. وكانت دائمة الحديث عن تكليف المجنَّد في «هور الحويزة»(****)، وكانت تذرف الدمع خوفًا عليه وعلى مَن معه.

هذه السيدة قليلة الابتسام، استطاعت طفلتي الصغيرة أن تُضحِكَها، حين سألَتها يومَ رأتها عن اسمها فردَّت: «أم تكليف»، فرَكَضَت لإخوتها صائحة: «السيدة اسمها (أم تكييف)...»، ومن يومها أبرَمَت اتِّفاقًا مع الصغيرة أن تناديها «أم تكييف»؛ حتى يبرد قلبها، وتنسى لهفتها على ابنها «تكليف»، ولو للحظات. كانت تضحك من قلبها مع الطفلة كلَّما نادتها بـ «أم تكييف».

لتلك السيدة المتعَبة سلامٌ ومحبَّة، ورجاء أن تكون الحياة قد أنصفتها، وأعادت لها «تكليف» سالمًا، واستردَّت قلبها، وحصلت على نصيبها من الراحة والأمان.

---

* الصمون: من أشهر أنواع الخبز العراقي.

** الكمون الحلو والأسعد أو الأسود مع قطرات الزهر من مكونات خبز مدينتي "درنة" شرق ليبيا.

*** يكاونون: بمعنى يواجهون اليهود أو يتعاركون معهم.

**** هور الحويزة: يقع في منطقة ميسان والبصرة وشهد معارك عنيفة بين العراق وايران.

حكاياتٌ من سِفر الاغتراب (2)

«د. عطور»...

اسمها مُلفِتٌ جدًّا كما أسماء كثيرة. ألِفَتها الأذن وأطربتها رغم جِدَّتها وبعض غرابتها. بعد أن أصبَحَت طبيبةَ أولادي صارت صديقةً وقريبةً من القلب. كنتُ كلَّما داعَبَت عيني دمعة شوق لأهلي أحمل طفلتي الصغيرة وأدَّعي مرضها لتكشف عليها، فتلاحظ حالتي، وتقول: «يبدو أن لدينا طفلًا آخر مريض!»، وأضحك، وتضحك، وأعود لحالتي الأولى، ونمضي بعض الوقت معًا، وأتركها لعيادتها ومرضاها من الملائكة الطيّبين.

ذات نهار وقد دوَّى في البيت قرارٌ مفاجئ، واستعدَّ أبونا للعودة للوطن، على أن نلحق به إن تيسَّرَت رحلته ومرَّت بسلام، قرَّرتُ أن أودِّع بعض أحبابي من أهل المدينة، التي تغفو على صوت الصواريخ وتصحو لتعدَّ قتلاها، وكانت الحرب في عِزِّ شَرَرها وشرّها. ضمن مَن زُرتُهم هي، أخبرتها فارتعَبَت، وتغيَّرت قَسَمات وجهها، وسألتني: «هل لديكم مَن يضمنكم هناك؟!»، فضحكتُ بعلو صوتي، فردَّت بحَزمٍ: «لا عيوني أم غسان ما يصير! لازم تاخذون تعهُّد مكتوب بسلامتكم من أي أذى قد يحدث لكم لا سمح الله»، فهززتُ رأسي بنعم؛ حتى لا أزيد انشغالها، وودَّعتُها مُتمنّيةً السلامة لبغداد ولأعزَّاء علينا يقطنونها.

كان الضجيج حولنا شديدًا، حدَّ أن آذاننا لم تعد تسمع شيئًا مع تصاعُد الغبار والأتربة، اللَّذَيْن تثيرهما الطائرة المروحية، التي تحمل زوجة أحد كبار المسؤولين لحضور المهرجان الأشهر عربيًّا، وكان بجواري طفلي الصغير، فتملَّكه الرُّعب، فقفز لحضني يحتمي بي، وبعد أن حطَّت الطائرة، وتهادت السيدة الجميلة، انتشر عبق الحُسن، وعمَّ الهدوء، إلَّا من همهمة سَرَت بين الجالسين عن قرب ظهور المطربة، ما دامت رئيسة المهرجان قد حلَّت بالمكان. كنتُ أجلس منتظرةً طَلَّة المطربة الجميلة،التي أحَبَّها العرب لاختياراتها القريبة من قلوبهم. دقائق، وأطلَّت بكامل أناقتها، وحيَّت السيدة المهمَّة الجالسة في الصفِّ الاول، وبدأت الموسيقى، وتهادى الصوت الحريري، فساد صمتٌ وخشوع إعجابًا بهذه الهِبَة التي تملكها مطربتنا. تابَعتُ الصوت الناعم والأداء الكلاسيكي عالي المستوى، وسرحتُ في المكان والناس، وكنت موزَّعةَ القلب، بين حاضرٍ في المكان وبين غائبٍ يرقب حالةً من جمود، لا تتغير في حياتي وحياة مَن يقبع خلف القضبان ينتظر فرجًا لم تَحِن لحظته.

كنتُ أصوِّب نظري لجهة معيَّنة، أتمعَّن وأستعيده ثانية، فيجبرني على العودة لنفس الاتجاه. كانت سيدة تجلس بين ما يبدو أنه زوجها، وبجوارها شابة صغيرة السِّنّ. الوجه أعرفه رغم الإضاءة الخافتة. نعم هي. تأكَّدتُ عندما حانت منها هي

الأخرى التفاتةٌ في اتجاهي، ولا أعرف لهذه الحالة تفسيرًا؛ فالمكان كان مكتظًّا بالبشر، وبيني وبينها خمسة أو ستة صفوف،

وعندما التقت أعيننا، كان لا بُدَّ من التقدم نحوها، فوقَفتُ، غير أن أحد الحراس جاء مُسرِعًا، وأخبرني بأن ما أفعله ممنوع، بحكم تواجد السيدة رئيسة المهرجان، وجاءتني شجاعة لا أعرف لها تفسيرًا سوى الرغبة في رؤية مَن تيسَّرَت لي رؤيتها، ولن أفرِّط في هذه الفرصة، مهما كان الثمن، فشرحتُ له قصَّتنا، وأنني وهي صديقتان و... و... و...؛ فَلانَ قلب الرجل، وقلوب البشر في الغالب تلين وترأف في هكذا حالة، وتقدَّمتُ الصفوف المتراصَّة بصعوبة، وأنا التي أخشى الارتفاع، ووصلت لها وتَعانَقنا، وظلَّت المرأة مذهولة لهذه الصُّدفة النادرة هنا، وفي هذا البلد، وبعد كل هذه السنين، ألتقي د. عطور وأسرتها، وقد جاءت من بلدها لاجئةً تحتمي بسلام هذه المدينة وأمانها.

سألتني عن زوجي وأخبرتُها بما جرى فتأثَّرَت بشدَّة، وقالت: «كنتُ أعرف أنها كانت مخاطرة كبيرة»، وتمنَّت له السلامة، ثم أردَفَت: «نحن الآن نعايش نفس التجربة، ونقتات على ذاكرةٍ نحاول ألَّا تهرب منَّا».

سيرة ضحكة...
«لا بلاكا».. ذات صيف! (1)

كانت الضحكاتُ المدويةُ في الزقاق المتعرّج، الذي يتَّسِع مرَّةً ويضيق مرَّات، هي مَن جذَبَت راعي كنيسة قريبة من وقفتهنَّ المتأمِّلة في المكان. إحداهما خفيفة الظل، لا تعرف كيف تكتم ضحكتها إن هاجمتها، ولا تستطيع تخفيض درجتها، فتخرج عاليةً بلا قيْدٍ، زاهية، مُحبَّة للحياة وللانبساط. رفيقتها الهادئة سيدة وقورة، لم تحاول إسكاتها؛ فهي تعرف أنه لا فائدة من ذلك، غير أن وقفة الراعي المبتسم نبَّهَت صاحبة الضحكة الصاخبة، فعدَّلَت من درجة صخب ضحكتها، ورسمت ابتسامة المعتذرة. بادر الرجل -وكان يتأهَّب للدخول لكنيسته- بدعوتهما لمشاركة القُدَّاس المقام لتكليل عروسَيْن فيها، وافقتا على الفور، وقادهما إلى الداخل، وكان المكان يعجُّ بالمدعوِّين، جلَسَتا، وكانتا محلَّ ترحيب من الموجودين، وقد لاحظوا أنَّهما ليستا من رعايا الكنيسة، وليستا من المتطفِّلين؛ كونهما دخلتاها بدعوة طيبة من الرجل صاحب المكان.

أثينا في صيفٍ قائظ (ومتى لم يكن صيفها غير ذلك؟)، كان البيت الصغير يعجُّ بالضيوف، وصاحبته تُرحِّب بلا مَلَل ولا كَلَل، وكانت الأجواء حميميَّةً، والجميع سعيد باللقاء، وصاحبتنا تفرض سيطرتها بالذي يحبُّه الجميع، ولا يختلف عليه أحدٌ: الضحك، تختلقه حتى وإن نَدَر، تُوجِدُه حتى في يومٍ عَبوس، تهديه لمن حولها حتى وإن عزَّت الهدايا وقلَّت المناسبات. كانت -كغيرها من هذا النوع البشر- هديةً ثمينة، يجتمع على امتلاكها وحبها وتقاسُمِها كلُّ مَن عرفها، أو اقترب منها. في إحدى نهايات الأسبوع اقترَحَت على السيدة الوقور أن تترافقا للتَّجوُّل في أزِقَّة «لا بلاكا»، بعيدًا عن ضجَّة البيت الممتلئ بالأحِبَّة حدَّ الاكتفاء. خرجتا سعيدتيْن بالجولة وبالجمال الذي رافقَهنَّ مذ خروجهن من البيت، عابِرَتيْن الشوارع الفسيحة والحدائق والسُّوَّاح المنبهرين بمدينةٍ كان اسمها -ولا يزال- سيِّدَ التاريخ والحضارات. مرَّتَا بالسوق الكبير، وبأزِقَّته المشابهة للأسواق الشعبية في كل مكان يعجُّ بالسُّوَّاح المتسكِّعين، وبالتُّجَّار المتذمِّرين من الأمريكان، هكذا أسَرَّ أحدهم لهما. قال: «لا زلنا ندفع ثمن ما جرى في حروبهم. هم حرَّرونا كما يقولون، ثم جثموا على صدورنا». همَسَت لصديقتها الهادئة: «جثمت الحبايب هالحمر»! فحاوَلَت السيدة أن تكتم ضحكتها بلا طائل، فضجَّت بالضحك هي الأخرى، وتركتا الرجل حائرًا ومبتسمًا، فالضحك عدوى لا مصلَ يوقف انتشارَها. كانت وجهتهما المدينة القديمة لأثينا، ووصلتاها وجالتا بأزقَّتها الضَّيِّقة المرتفعة، بلون حجارة حيطانها البيضاء المائلة للصُّفرة، وبلاطها الرخامي اللامع، وببيوتها المطِلَّة على الأزِقَّة مفتوحة الأبواب، ربما لدعوة المارّين لإلقاء نظرة، فهنا التاريخ بدأ، وهنا امتداده، يعيشون على عتبات الزمن حاضرًا، وموغِلًا فيهم وبهم. هنا المدينة ضاجَّة بالناس، فاتحة ذراعيها للباحثين المقتفين لتراث البشر: مَن مرُّوا وأنجزوا، وتركوا إرثًا يمدُّ المتأمِّلين بثقةٍ،

بأن مَن يعمل يبقَ، ومَن يكتب يبقَ، ومَن يخدم البشر يبقَ، ومَن يشيّد يترك أثرًا لا ينمحي. وكان الضحك رفيقَ التَّسكُّع، حتى حصلتا على دعوة الراعي، جلستا بجوار رجُلٍ كبير السن، رفقة ابنته، هكذا قدَّمها لهما مُرحِّبًا بهما، فهو من أقارب العروس، فباركتا له، وأثنَيَتا على جَمالها وفستانها. سألهما السؤال المعتاد في الرفقة، التي نصنِّفها بالصُّدفة، «من أين؟»، قالتا: «من ليبيا»، فابتسم الرجل. انتبَهَت الشابَّة لابتسامته، فواصل متعجِّبًا: «أعرفها جيِّدًا، خاصَّةً (درنة)»، فكادت الضحكة أن تنفجر بُركانًا، فتُتلِف هدوء ووقار المكان، فأطبَقَت فمها، وواصل الرجل: «أعرف الميناء، وأعرف أزِقَّتها واحِدًا واحِدًا، حتى أسماء عائلاتها. كنتُ أحمل شكك السمك نظيفًا وجاهزًا للطبخ، وأمرُّ على البيوت الدرناوية، أبيع وأشرب الشاهي بالنعناع والزهر، وقطعة من خبز التنُّور، وأشكر الجميع، وأعود إلى (كريت) مساءً»...

يا لهذا الذي يجري في فرح يوناني، في كنيسة بزقاق ضيق ذات ظهيرة!

صمتت السيِّدة الوقور، وجاوَبَت قطرات دمعٍ نَديٍّ للشَّابَّة الضَّحوك.

سيرةُ ضحكة...
«لا بلاكا ذات صيف»! (2)

نهضتا من مقعديهما، بعد أن أومأتا للرَّجُل وحفيدته شاكِراتٍ الصُّحبةَ والصُّدفة، وغادرتا بهدوء. قالت لرفيقتها وهي تمسح دمعًا قد جرى من مقلتها حُبًّا وقلقًا وشوقًا: «سبحان الله! نهرب من طاريها(*) فنجده عند شايب يجلس بجوارنا في كنيسة في (لا بلاكا) في (أثينا) في (اليونان)».

ما إن أكمَلَت كلمة «شايب» حتى انتبهت لخطواتٍ لاهثة، ومناداة صوتٍ أرهَقَه العمر والمشي السريع، تلقَّتَت أمُّ الضحكات فوجدته! هو نفسه كان يُسرِع الخطى رغم وَهَنِه، كان يبحث عن شيءٍ ما، قصة ما، تاريخ ما، نسيه طويلًا وتجسَّد له هذا النهار، ومع هاتين السيدتين.

توقَّفَتا مندهشتين متسائلتين عمَّا يريد... فقال: «كنَّ ثلاثًا»، فجاوَبَته إحداهما ضاحكة: «ثلاث؟»، فجاوبها: «وشقيقات...»، فتابعَت: «هذه أُحجية؟»، قال: «بل حقيقة. كنتُ أتحيَّن الفرصة وأمرُّ ببيتهنَّ، أبيع السمك، وأسرق النظرات؛ فمثلهنَّ ما رأت عيني!».

تباطَأَت حركتهم في الزقاق الضيق على الأرضية المرصوفة جيّدًا، وكأنَّ مَن رصفها قد أنجز عمله وغادر قبل وقت قصير! وأفسحوا الطريق لبعض المارَّة المسرعين، بعضهم يلتقط الصور، وبعضهم يتبادل التحايا، يبدو أنهم قادمون في مجموعة واحدة ومن نفس البلد، هكذا بَدَوا لهما من لون القمصان والعَلَم والسيدة التي تتقدَّمهم، وتحكي بزهوٍ عن تاريخ بلادها، التي علَّمَت الدنيا أبجديَّات الحضارة، هكذا يرتفع صوتها بغرور الشعوب، التي صنع أجدادهم الكثير واكتفوا هم بالفخر والعجرفة على باقي خلق الله. هكذا تمتمت إحداهما، وواصَلَت السيدة الضَّحوك: «صحتهم تمام»... فجاوبَتها الوَقور مُبتسمة: «معاطي(**) ناس رايقة»... فأسرَعَت الأخرى: «لا عليكِ منهم... خَطِّيهم رانا نعطوهم بعين»، وانطلَقَت بضحكتها الهستيرية، لا يتَّسِع لها ولا يحدُّها هذا الزقاق وتَعرُّجُه وضيقه، وواصَلَت: «يقول لك كُنَّ ثلاثة... الرجل لديه ما يقول... نعم، ومَن هُنَّ الثلاث سيدي؟»، جاوبها: «زبوناتي الدائمات، كنتُ أنتقي أحسن المحصول وأنظِّفه وأشكِّكُ عشرة وأبقيها بعيدة عن قصبتي الطويلة التي أحمِّل عليها شُكُكَ الأسماك، لا... بل أضعها في كيس لوحدها، وعندما أصل لمنتصف الزنقة الضيقة –وبالتحديد أمام بيتهنَّ– أبدأ في المناداة؛ فتخرج إحداهنَّ ولا تنطق بكلمة؛ فأنا أعرف طلبهن، فأقدِّم لها الكيس، وتعطيني الثمن، وتطلب مني الانتظار قليلًا لتحضر الشاي وخبز التنُّور الطازج وبعض

عسل وسمن. أتناول كل هذا على عَجَل وأمضي شاكِرًا طيب وفادتها، حتى كان يوم أعدُّه يومَ أيَّامي التي كتبها الله لي والتي سيكتبها.

كنتُ أتجوَّل في المكان مُجهِّزًا الطلب الثمين، وما إن نادَيتُ حتى خرَجَت من نفس البيت ثلاث فتيات وقفن يتأمَّلن هذا البائع القادم من كريت، الحامل خيرَ بَحرٍ يجمعه بهنَّ، الشاب الذي به بعض وَسامَة: شَعر أشقر، وعينان ملوَّنتان ببريقٍ مُتوسِّطيٍّ خاصٍّ لا نجده إلا في خلق الله على ضفَّتي هذا البحر الممتد»، وصدَرَت عن دائمة الضحكة ضحكةٌ إضافية؛ فانتبه العجوز، وابتسم، وفَهِم، ولم يهتمَّ، وواصل: «سأصفهنَّ لكُنَّ: واحدة طويلة، والأخريان مُتوسِّطَتا الطُّول، وتجمعهنَّ تقاطيعُ حلوة: أنف شاهق، وعيون مُشرِقة مُشِعَّة ذكاءً وخِفَّة دم، وكلُّهنَّ خَمريَّات، والطويلة تُزيِّن مُحيَّاها بوشوم صغيرة متوزِّعة تحت الشفة وعلى الأنف المشرئبِّ إلى الأعلى. كانت لها نظرةٌ تأتي بكريت وكلِّ مَن فيها من رجالٍ إلى (درنة)، وسيعودون منها مكسوري الخاطر؛ فمثلها لا يملأ عينه أحدٌ»! ثم صمت العجوز قليلًا، إلَّا أنا!

مَن سيمسك الضَّحوكَ وقد فقَدَت صوابها، وهزَّت ضحكتُها هدوء الزقاق المتعرِّج، فتعرَّج صدى الضحكات معه حتى وصلت لنهايته، ورجَّت أركانَ أثينا كلها، وانتقَلَت العدوى لرفيقتها الوقور، وحاوَلَت زجرها بغير فائدة، غير أن الرجل واصَلَ حديثه غير مهتمٍّ برِدَّة فعلهما: «كنتُ أنزل الميناء كل أسبوع أبيع أسماكي وأتبضَّع من سوق (درنة)؛ فـ (كريت) بلدُ الفقراء، ولا شيء فيها. كنَّا نشتري القمح والأرز والسُّكَّر، وكان الدراونة يستغربون حالنا وهيئتنا المزرية ويتعاطفون معنا، ولنا معهم حكايات لا تنتهي.

أحدنا مرَّ من أمام مجموعة منهم تتسارى على المصطبة أمام جامع (الصرواحي)، فحكى أحدهم بصوتٍ عالٍ: (في جيب هذا الرقريقي خمس سفريتات)(***)؛ فتحسَّس الرجل جيبه ليتأكَّد، وأصيب برعبٍ شديد؛ فليس في الجيب سوى هذه السفريتات، فانطلق يعدو صوب البحر، وأقسم ألَّا يعود لمدينةٍ يعلم أهلُها ما في جيوب الأغراب»!

بادَرَته الضَّحوكُ: «دَعكَ منهم... لا جديد؛ فهذا حالهم! أخبِرني عن أم النفايل»(****)، واصل: «واظبتُ على المجيء، وواظَبَت هي على الخروج وأخذ السمك ودفع الثمن، وكأسُ الشاي في يدها وكِسرَة خبز التَّنُّور والعسل والسمن. غرقتُ في العسل، وخارت دفاعاتي وخوفي وحذري، وحكينا بعربيَّتي المكسورة وبلسانها الطَّلق الحِبِيّ.

مرَّ عامٌ ونحن على هذا الحال، حتى ذلك النهار الصيفي القائظ والهدوء يعمُّ المكان، وأنا واقفٌ معها أمام بيتهن، فإذا بغيمةٍ تمرُّ أمام عينيَّ، وكأن السماء ادلهمَّت فجأة، ولم أرَ إلا خيالها يندفع داخل البيت وأنا بين شابَّيْن يمسكان بتلابيبي، وفَهِمتُ ما يجري، ورمَيتُ القصبة الطويلة بحملها الثمين، واندفَعتُ نحو الميناء واحتميتُ بالمركب ومَن فيه، ورَجَوتُهم سرعةَ الرحيل!».

سيرة ضحكة...

*طاربها: ذكرها أو الحديث عنها.

** معاطي: هبات.

*** الرقريقي: هكذا يسمي الدراونة صيادي (كريت). سفريتة: هكذا تداول الناس الرواية، وبحثتُ في أصل هذه العُملة ولم أجد لها ذِكرًا في تاريخ العُملات في اليونان.

**** نفايل: وشوم.

«لا بلاكا ذات صيف»! (الثَّالثة والأخيرة)
(وضَحِكنا ضِحكَ طِفلَيْن معًا)

لم تتمالَكَا نفسيهما من الضحك. حتى الوقور أطلَقَت العنان لضحكةٍ هي بين تخيُّل منظر المسكين يعدو فَزِعًا مُحاوِلًا النجاة ممَّن يتوعَّدونه غاضبين، وكأن الحياة والموت تجاوَرَا في لحظة بؤسٍ وقلَّة حيلة... بين الصورة التي تُظْهِرهُ وحيدًا في أزِقَّة المدينة التي «يقيِّل» أهلها تلك الظهيرة، فلا مُنجِدَ له ممَّا يجري إلَّا البحر، والبحرُ في حالة جَزْرٍ تلك الساعة! في خروجٍ فاضح على قوانين الطبيعة، كأنه يتآمر مع أولئك الشباب الغاضبين، فالرجل يعدو، والبحر يبتعد، والنَّفَسُ المرعوب يتعالى، وحَرُّ ذلك الصيف تعامد مع الخطوب التي تحيط بالصيَّاد الأهوج، الذي غرس قلبه في أرضٍ ليست له؛ فأثمر فَزَعًا وغَضَبًا، وها هو بائسٌ ووحيد، يلوم «درنة»، ويصرخ يائسًا، أمَا مِنْ قلبٍ يتعاطف يا مدينة يعشقُ أهلها العِشْقَ، ويكتبونَهُ شِعرًا، ويغنُّونَهُ طَربًا، أين مزماركم الذي ينوح كلَّما ذَكَر الصَّوبَ ذاكرون؟ أين كل هذا من رجل مرَّ بمدينَتكم، وأحبَّ صبيَّةً في أحد أزقَّتها فناله ما ناله من الهَوان؟

لمحَتَا نظرة عَتبٍ منه لأنه ما حكى لتضحكا... هو يستعيد في حضورهما العجيب بعضَ حياته، التي كان سلَّمها ذات نهار لبنتٍ جميلة بدرنة، فكادت تلك المدينة أن تَفتِكَ به. انتبهتا لصمته، فسألته الضَّحوكُ: «وماذا بعد؟ هل أخذك البحر إلى (كريت) وأقفلتَ باب (درنة) وابنتها أم النفايل، وتابَعتَ حياتك بعد أن نجوتَ بفعلتك؟».

واصَلَت ضحكاتها، ومِنْ حولها يتمشَّى السُّوَّاح والمتسكعون في «لا بلاكا»، مُتنسِّمين هواء أزِقَّتها الرطب وظِلُّ التاريخ يتبعهم، ويتبعونه طائعين، مُحبِّين، وحالمين؛ فللتاريخ سطوته على البشر، وفي تلك المدينة بدأ، وانتشر أهلها في الدنيا غزوًا وسلبًا لمدُن الناس، لم يتركوا مكانًا في الأرض لم تطأه أقدامهم، وها هم الناس الآن يتأمَّلون ويتبرَّكون بعظَمَتهم مذهولين بمساعيهم في نشر الحضارة، كما صار اسمها، بعد أن تَقادَم فِعلُ الغزو والاحتلال. إنهم المستعمرون الأوائل، أجداد مستعمرينا الجُدُد، وأحفادهم الآن المزهوون بعَظَمَة التاريخ وقصصه التي تزداد وضوحًا وعجبًا، كلَّما تراكَمَت السنون وبهتت الألوان، وصار ما جرى محمودًا، بل ومقبولًا، ويجلب البِشرَ والرزق الكثير.

ابتسمَ العجوزُ، وكأن صورتها واقفةً أمام بيتها قد عادت حيَّةً هذه المرة، وراح بعيدًا حيث تلك الأيام التي لم تَطُل بهما، ثم استدرك: «لا، لم أتوقَّف، لقد حاولتُ وأرسلتُ صديقًا إلى أهل المصطبة(*) الشهيرة، (مجلس درنة البلدي)، ومحل

اجتماع رجالها لبعض راحةٍ ولتأمُّل النساء الغاديات والرائحات، ولتداول ما يجري في المدينة من حكايات أو حوادث وأداء الصلوات أيضًا؛ فجامع الصرواحي الشهير الذي سُمِّيَت المصطبة باسمه مجاورٌ لهم.

تقَدَّم المرسال من كبيرهم وسلَّمَ، وأخذَ الأمان؛ فما سوف يقوله ليس سهلًا ولا مقبولًا ربَّما، لكنه سيتكلَّم على كل حال. وما إن بدأ الحديث حتى وقف رجُلٌ وأخذ الرقريقي جانبًا وقال له: (اسمع يا أخي، قُلْ للصَّيَّاد الذي أرسلك لقد أخطأتَ بَحَرَكَ هذه المرَّة... سَمَكتُنا عزيزة على أهلها، وأنت ابن بحرٍ وتفهم ما أقول). عاد الرجل وأخبرني؛ ففهمتُ، وحزنتُ، وعشتُ بعضًا من عمري تائهًا مُوزَّع القلب والعواطف، لكنَّني واصلتُ بعدها حياتي، إلى أن كان ذلك النهار. كنتُ أتمشَّى مع حفيدتي، وبينما كنت أهمُّ بدخول المحل، وإذا بي أسمعُ الصوتَ الذي أعرف ولا تخطئه أذناي. كانت تحكي جَذلَى مع الصبيَّة التي لا تفهم ممَّا تسمع شيئًا! لقد سألَتها جازِمةً في نبرةٍ لا شكَّ فيها: (وين جدّك الرقريقي؟)، وخرجتُ مُسرِعًا لأجدها أمامي بديعة المحيَّا كما هي، وجهها الصبوح لم يستطع الزمنُ هزيمةَ جَماله، وطلَّتها كما هي، وجسدها الفارع ظَلَّ فارِعًا ومُنطَلِقًا لا يعبأ بعمرٍ مرَّ بجَماله وبمُرِّه وحلاوته وبعناد الظروف الحافلة بالهزائم والانتصارات.

هكذا رآها قلبي قبل عينيَّ! وضحكنا ضحكَ طفلين معًا، لا أعرف هل ضحكتنا تلك الساعة لسعادة اللقاء أو للسخرية من الزمن أو من (عرب درنة)؛ فلقد أفلَتَت يدها من قبضتهم، وجالَت الدنيا، وحطَّت رِحالها حيث يقودها ذلك الخافق المسكين؟ أو لأن حفيدها الصبي الذي كان معها يشبه أحد الرجال، الذين كادوا أن يفتكوا بي تلك الظهيرة أمام بيتها في ذلك الزقاق الدَّرناوي العابق ببهجات قاطِنيه وبالحب الذي يعرفونه جيّدًا وينكرونه على مَن ليس منهم؟».

---

*المصطبة: مصطبة "الصرواحي" من معالم درنة الشهيرة.

ذات أبريل(*)

«يا قافلين السجن حلُّوا بابه... يدور الزمان وتجربوه عذابه»...

«هذه الأرض هي العرض لنا... قد سَقّينا تُربَها من دَمِنا»...

كان الغناءُ يتناهى للمحامي الشاب، الرابض في سيارته «الڤولكس ڤاجن» الصغيرة أمام مركز الأوسط، وقد قرَّر ألَّا يترك المكان، فلا حلَّ آخر في الأفق غير محاولة الحماية: حماية الشابَّات الأربع عشرة من مصير مجهول دُبِّر بليل.

كان الرَّجلُ قد أجرى اتصالات بوزراء ومسؤولين دون الحصول على جوابٍ شافٍ. كيف سيعود إذًا إلى بيته؟ وماذا سيقول لمن تنتظر برعب، ولا تعرف ما الذي سيحلُّ بشقيقتها ورفيقاتها؟

---

* عمل مستلهم من واقعة حقيقية روتها للكاتبة إحدى بطلات ذلك النهار 7 أبريل 1976.

طرابلس صباح السابع من أبريل 1976...

كان النزفُ واضحًا، والبنات يتجمَّعن حوله محاولاتٍ تنبيهه وإسعافه، والرجل يشيح بوجهه، غاضبًا وخَجِلًا؛ فهو لا يعرف ما الذي حلَّ به إلَّا من هذا الدفق الساخن، الذي يغمر نصف وجهه، ويتقاطر على بدلته الموشَّاة ببضع خطوطٍ على الكتفين. حاول أن يتحسَّس السائل مُندهِشًا ممَّا يجري، لكنَّ يده بدت وكأنها مُكبَّلة، فلم تصل أنفه الخاشع بلا ذُلٍّ، الحزين بألف سبب، والمنكسر بفعل ما يدور.

تقدَّمَت «فتحية» ورفيقاتها وبأيديهن بقايا شاش وكحول طبي لإسعافه، والرجل يرفض ويشير لها ولهنَّ بأن يبتعدن... قالها بعد ذلك بصوتٍ واهِن: «اتركنني. سأهتمُّ بنفسي. أنا أعرف ماذا أفعل، أمَّا أنتُنَّ فغافلات، يا لهذا اليوم الكريه!، ما الذي جاء بي إلى هذا المكان؟! وأي تعاسة تلفُّني وتغمُّ قلبي؟!».

«يا بنات تحرَّكن وما تلتفتنش لاورا... ريحَتي!»...

تجاهَلن كلامه؛ فالرجل ينزفُ كثيرًا، وسَيْلُ الدماء ممتدٌّ بين جسده والأرض، وعويل البنات يُسمع في أرجاء كلية العلوم.

كان ذلك النهار بلا ضياء، حتى وإن سطَعَت شمسه وتوسَّطَت كبد السماء. لكنَّ أحدًا لم يفهم لغز الظلام الذي خيَّم على ذلك المكان، ومنه انتشر إلى مدينة طرابلس بالكامل... بينما كانت الوجوه النَّضِرة والمستبشرة برحلة العمر تملأ أتوبيسات مُحمَّلة بالصبايا القادمات من المدارس الثانوية والمعاهد، وكانت نشوة الصِّبا والفتوَّة تغمر قلوب الفتيان أيضًا، وقد استُجلبوا للفسحة في الجامعة.

ما إن دخلت هذه الجموع الشابة لأرض المعركة، حتى مُدَّت لهم بقايا المدرَّجات –وقد تمَّ تحطيمها عنوةً– من أخشاب وعِصيٍّ وحتى حجارة، وطلبوا منهم تحرير المكان من المندسِّين والمخرِّبين. تلفَّت الصِّبيَةُ حولهم ليُدقِّقوا في الوجوه الطيبة، متسائلين مَنْ المندسُّ؟ ولماذا يندسُّون والمكان لهم؟ لا وقتَ للدهشة، أو الاستفسار؛ فالعِصِيُّ تدفعهم، والهدف واضح، ولم يختبئ: لماذا يختبئ؟ هو في مكانه، وهم الضيوف، فأهلًا بهم.

أهلًا بهم! وبدأت الحفلة! واستمرَّت نهارًا مظلمًا شديد القهر والذهول، وحتى التساؤل الصارخ «لماذا؟»، وسقط طَلَبةُ وطالبات جامعة طرابلس –وكان هذا اسمها حتى ذلك النهار– بين أيدي أحبابهم يَضربون ويُضربون. والخوف يملأ القلوب الصغيرة، والسؤال الحائر: ما الذي جاء بنا؟ ومَن هؤلاء؟

تخطَّت «نجميَّة» ومعها صديقاتها من الكُلِّيَّتين حاجزًا صغيرًا من الفِتية والفتيات، ولم ينطقن ببنت شفة... كانت الصبايا من الزائرات المعتديات مأخوذات بجمالهن، ومُمَنّين النفس بيوم يصبحن مثلهن في هذا المكان،فتوقَّفت العِصيُّ عن الحركة، ولم يضربن هذا الجمال السائر إلى حيث يتجمَّع ضحايا الضرب بجراحهم الكثيرة؛ فالطَّعن قد مسَّ الأجساد والقلوب.

وصَلَت ورفيقاتها إلى مستوصف الكلية، ووزَّعن المهام: «الفاطمتان» تُشرفان على تطبيب زملائهما الجرحى، وتُصنِّفان أدوات التطبيب حتى تُسَهِّل العملية على البنات. «سالمة» و«نفيسة» —وغيرهن؛ فهُنَّ كثيرات– وبدأن فعليًّا في تنظيف الجروح وتضميدها وتطمين الطلاب وتخفيف فزعهم ودهشتهم ممَّا يجري.

لم يكن أمرًا خطيرًا، ولا مسَّ أمن أحد. كان فِعلًا شريفًا، وكنَّ في المكان الصحيح... هكذا تحدَّث الرجل مع القوة القادمة المدجَّجة بالسلاح والمقتحمة للمكان. لم يتركه قائدُ الفرقة يكمل كلامه وبدأ يضرب البنات... جرحٌ هنا، وخبطة على الرأس هناك، ولَيٌّ ذراعٍ لأخرى... وفزعَت المسكينات. كانت الشتائم متنوِّعةً ومُتداوَلة ومعروفة، عندما تكون الضحية امرأة.

وقف الرجلُ مشدوهًا مُستفَزًّا غاضبًا مقهورًا... كان قلبه قلبَ رَجُلٍ نظيف، لم يهتمَّ لبدلته والخطَّين على الأكتاف، ولا لسلاحه وهراوته. كان في تلك اللحظة الفارقة في حياته وحياة «فتحية» ورفيقاتها، وحياة بلادنا، ينزف دمًا ليبيًّا خالصًا لوجه الوطن –الذي يحبُّه المتعاركون بلا وعي هنا–، فامتدَّ وجرى في مسارب وشوارع المدينة وأزقَّتها...

ڤيالي (لورينزو المانيفيكو)(*) روما

تأهَّبتُ للخروج. تأكَّدتُ من استغراق الصغيرة «عايدة» في النوم، وكانت مع والدها. وأغلَقتُ البيت بهدوء ووقفتُ أمامه قليلًا لا أعرف لماذا؟ ربما لألتقط أنفاسي اللاهثة، بعد أن أهلكني «غسَّان» ما بين محاولة إيقاظه وتهيئته، وما بين رتابة «ريما» الحَذِرَة الحريصة على كل التفاصيل قبل النزول إلى باص المدرسة، وهكذا كان. خرج الصِّغار، وقرَّرتُ الخروج، أنا أيضًا، إلى شوارع المدينة، التي عدتُ إليها بعد غيابٍ طويل.

نزلتُ السلالم وكنتُ بالطابق الثاني. قابلتُ جارتي المسِنَّة خارجةً هي الأخرى إلى مشوارها اليومي، حيَّيتهُا فردَّت التحية بابتسامة حانية. سألتني عن أُسرتي، وسألتها أنا أيضًا، وانطلقنا، كُلٌّ إلى سبيله... وقفتُ قليلًا متأمِّلةً المبنى الجميل، الذي أقطنه، ثم اتَّجهتُ يمينًا حيث الشارع الكبير «لورينزو المانيفيكو»، سِرتُ محاذيةً مباني تؤكِّد حضارة وعراقة هذه المدينة، تأمَّلتُ بعض الواجهات، لم تكن بي رغبة في التبضُّع، ولا لأي شيء آخر. عَبَرتُ الطريق إلى الجهة الأخرى، لم أنتبه لسيارة «الفيات أونو» زرقاء اللون، إلَّا بعد أن أطلَقَت السيدة العنان لبوق السيارة التي تقودها، كانت لطيفةً وغير منزعجة. ربما شعرَت بخطواتي التائهة، وبحالي.

اجتزتُ، حيث أتمشَّى على الرصيف، مجموعةً من اليهود الليبيّين، عرفتهم من لهجتهم الطرابلسية المهجورة بلثغةٍ تُميِّز نطقهم لبعض الحروف، استأنستُ بهم، ذكَّروني بـ«بلادٍ مُرّة الطرقات لا ترحم»(**).

ثمَّ؟! تلفَّتُّ حولي ونسيتُ اتجاهي، وضاعت خطواتي! ذهَبَت الرُّوحُ بعيدًا إلى رصيفٍ آخر بشارع «علَّال الفاسي»، طريقي اليومي من بيتي إلى وسط «الرباط»، أتمشَّى وأتسوَّق وأشتري الكتب من أرصفة الشارع، حيث يتواجد الباعة المثقفون، شباب يسترزقون من هذه التجارة المبارَكة، وأُنهي المشوار بربطة نعناعٍ مغربي، تأخذني رائحته إلى حيث القلب والهوى «درنة»! ثم أعود إلى بيتي، وإلى مدارس أولادي القريبة من هناك. يا إلهي! أين أنا؟ وانحدر الدمع، وتاهت النَّفسُ، ووقف البدنُ حائرًا. في أي اتجاه رمَتْكِ الرِّيحُ أيَّتها العالقة بين المسافات والمدن؟

---

* من كبار السياسيين الإيطاليين في عصر النهضة، وهو الداعم لكبار فنَّانيه: داڤينشي ومايكل أنجلو.

** قصيدة "غربة" للشاعر الليبي "علي الرقيعي".

ثلاث عجائز من مدينتي

رأيتهنَّ يتهامسنَ، والجزع بادٍ على وجوههنَّ، بل وحتى الحزن والبكاء. يا إلهي! ما الذي يجري؟ أنا أحبُّ اجتماعهن؛ ففيه ضحكات تصل إلى أقاصي الأرض (إي والله). ما الذي غيَّب هذه الضحكات المجلجلة وأبدلها بكل هذا الحزن؟

اقترَبتُ أكثر لأتبيَّن. سوف لن ينتبهن لي، مَن ينتبه إلى طفلة صغيرة، تدَّعي عدم الاهتمام بحالتهنَّ، وعدم الفهم، وهي في الحقيقة ترصد وتسجِّل وتُدرج الصور في حافظة الزمن؟ صورة تتلو صورة. (يانا يالصغّر يابوي!) يا الله! هذا رجلٌ وصغير وتوفِّي. لا بل قُتل. هكذا سمعتُ إحداهن تقول: «قالوا اقتلوه وحذاه امّرتَه! يابوى اسّمَ الله علي مينتك!»(*)...

مَن الرجل؟ وإن كان مِنَّا؛ أين العَزاء؟ لا أسمعُ شيئًا في شارعنا الصغير، ووالدتي لم تتحرَّك من بيتنا، لكنَّ ثلاثَ نساءٍ أُحبُّهن يُقِمنَ مناحةً وحدهنَّ، ثلاثُ نساءٍ، كل واحدةٍ من مدينة، غربٌ ووسطٌ وشرق، تجاورن ولا قرابة بينهن إلَّا الجيرة، جميعهن لهنَّ شخصياتٌ آسِرة، فيها الكثيرُ من النشاط، والكثيرُ من المرح، وبعضُ قسوة يُبرِّرنها دائمًا، ولا يجدُ قلبي الصغير لها داعيًا... أو هكذا رأيتُ في ذلك الزمن الجميل.

«الحاجَّة مريم»، أصيلة «بنغازي»، تسكنُ «درنة» بحُكم ارتباطها برجلٍ من المدينة، وتُجاوِرُ أهلي وتحبُّ أمي كثيرًا، وتقضي معها أوقاتًا طويلة حسب فراغ السيدتين، لم أرها مرَّةً بدون المغزل وكُراتِ الصُّوف، تُعِدُّه لتَحيكَ البلوڤرات الصوفية لأهل بيتها، وربما كانت تبيع الفائض لكثرة المرَّات التي أراها تحمل المغزل معها، عاشقة «للنَّشوق» أو «النَّفَّة»، لا تنطق بكلمة قبل أن تفتح علبة من الألومنيوم الصغيرة (كانت في الأصل حافظةً للأفلام)، تفتح العلبة، وتُدخِل أصبعَيْها الإبهامَ والسَّبَّابة، وتلتقط كمية مناسبة لفتحَتَيْ أنفها وتلقمهما بهما مرَّةً واحدة! كنتُ أعجب كيف لا تعطس بعد أن تعبِّهما؛ ففي محاولاتي السريَّة لتقليدها، انكشفتُ، بعد عطاسٍ شديد كاد أن يقطع أنفاسي!

كانت مُعالِجَةً لأمراض النساء والأطفال أيضًا، يأتونها بطفلٍ فاقِدٍ للشَّهيَّة «لترفع حلقه»... سمعتهم يُسمُّونه هكذا، والطريقة غريبة، ولا أنسى صياح الأطفال، وهي تغمس أصابعها في علبةٍ تحوي مادة سوداء لَزِجَة، وتُدخِلها في حلق الطفل في موضع اللوزتين!.

وتشتهر أيضًا بالحجامة، وكم من مرَّةٍ اختلستُ النظر إليها وهي تضع شيئًا يشبه «المحقن» أو «كاسة الحِجامة»، تضع بداخله قُطنةً ملتهبة حتى يُفرَّغ من الهواء داخله، ثم تضعه -بحرفية ظاهرة- على موضع الألم، بعد أن تفتح الجلد، أو تُمرِّر المشرَط -وغالبًا تكون «اللميتة»، وهي موسى حلاقة حادة جدًّا- في مكان الألم، الذي تُحدِّده لها مريضتها، وأتابعُ

-جَزِعَةً- الدماء التي تنضح من المكان، بينما تتابع هي عملها غيرَ مُبالِيَة! هذه هي «الحاجَّة مريم» التي أزعجني بكاؤها ذلك المساء. أمَّا الثانية «سالمة» فهي قادمة من «قماطة» مع زوجها العسكري، الذي يعمل مع الجيش الانجليزي، كانوا يعيشون مع عائلاتهم فيما يُسمَّى بـ «كامبو العسكرية»، غير أنَّها بعد أن توفي زوجها، وزوَّجَت بناتها؛ نزَلَت إلى المدينة، وسكنت بين أهلها، وتعرَّف عليها الناس بسبب شُهرَتِها كقابِلَة ومساعدة للسوريلَّات، وكانت معروفةً بكُرهها لمِقدِم الإناث، فما إن تطلَّ على الدُّنيا أنثى، حتى تَسبَّها وتسبَّ أُمَّها وكل فصيلة النساء... غير أنها طيِّبة القلب، سهلة المعامَلة. يعزو الناسُ غرابةَ طبعها إلى تعبها، وصعوبة مِهنَتِها، التي تتطلَّبُ منها أحيانًا الدَّوام ليلًا، فلا تعود إلَّا في مطلع الفجر، فكان الذاهبون إلى المساجد -ذلك الوقت- يعرفون «الحاجَّة سالمة» ويُحيُّونها ويتباركون بمرورها؛ فعلى يديها تهلُّ البرَكة والبنون والبنات!.

كانت تحبُّ «النَّقَّة» أو «النشوق» هي الأخرى كرفيقتيها الأخريين، ولها هي الأخرى طقوس خاصَّة، فهي لا تشتري «النَّقَّة» جاهزة أبدًا؛ فلها أقارب من مدينتها يرسلون إليها أوراق التَّبغ المجفَّف، وأراها دائمًا تنقعها في الماء، حتى تطرى وتذبل ويُزال عنها الأتربة، وتعيد تجفيفها، ثم تطحنها حتى تتحوَّل إلى «نَقَّة» أو «عطوس»، أو كَيفٌ بريء لا يتبرَّمُ أحدٌ منه، ولا من مُتعاطيه. كانت هي الأخرى حزينةً ذلك المساء، وتتبادل الأسى و«التعديد» على الرَّجُل الذي حيَّرني حزنُهنَّ عليه!.

أمَّا الثالثة فمن «درنة»، وكانت أقرَبَهنَّ إلى قلبي، وأكثرَهنَّ جَمالًا، لها عينان لَوزيَّتان، وشَعرُها ناعِمٌ مصفوف بجمالٍ وعناية ظاهرة، وكانت سيِّدةً في أهلها، تزوَّجَت وطُلِّقَت مرارًا، ولم يكن لها عَقِب، غير أن الجميع يحبُّونها، وهي بمثابة الأمِّ لهم. اسمها «الحاجَّة فاطمة». جَمالها -على كِبَر سِنِّها- يحكي عن الصَّبيَّة الشقراء التي كانت، وقوة شخصيتها تُفسِّر تَبرُّمَها من الرجال، الذين ارتبَطَت بهم، وخِفَّة دَمِها تَأسِر مَن يراها... لها ضحكةٌ واثقة تتسرَّب لمن حولها، فيُنعِشهم انبساطها ويسعدهم، ولها أيضًا نظرةٌ تثير فينا الرعب إنْ صاحَبَتها تكشيرة مناسبة للحال، إن اقترفنا فِعلةً صغيرة ولم تقبلها منَّا.

تسكنُ بصُحبَة أُسرَتها بغرفةٍ محاذية لغرف أبناء عمِّها ونسائهم في البيت الكبير! لها إجلالٌ خاصٌّ و«كبارة» كما يقولون، ولها «الشيرة والدبارة». أيضًا هي سعيدة بعزوتها، وعزوتها سعداء بهذه السيدة القوية، التي تُعرَف بكُنية عائلتها، فإن نُطِق اسمها تلبَّسَ المكانَ صمتٌ حتى يتبيَّن الجميع أحوال القادمة إليهم؛ إن ابتسَمَت ابتسموا، وإن تجهَّمَت صمتوا حتى يعرفوا ما بها، ويرضوها.

هي الأخرى، تشاركُ صويحباتها عشقَ «النَّقَّة»، غير أن الدلال ظاهرٌ عندها في اختيار العلبة، وفيمن يمدُّونها بأفخر أنواعها... لا تغيب هذه السيدة عن مناماتي، وتزورني دائمًا، وآنَسُ بوجهها الجميل وحكمتها الحاضرة، التي تتناقلها أجيالٌ من عائلتي حتى نهار الناس هذا.

أمَّا ذلك النهار فتعاظَمَت حيرتي وقلقي على نساءٍ أحببتهنَّ، وينشغلن عني الآن بالتعديد على رجُلٍ مجهول، حتى استطعتُ ببعض تشغيلٍ لمجسَّاتي القوية أن أسمع الاسم، إنَّهنَّ يُعدِّدن على رَجُلٍ يُدعَى «كينيدي»، «سمح، وصغيّر، وبلاده

بعيدة، قتلوه وبجانبه زوجته الصغيرة». وخبر مقتله وصل إلى «درنة»، فبكت عجائزها وَسامَته وشبابَه. ما زال ذِكرُ ذلك الرجل المقتول مرتبطًا لديَّ بذلك النهار، الذي غابت فيه ابتسامة من لا أعرفهنَّ إلَّا بها: ثلاثُ عجائز من مدينتي.

* قتلوه بجانب زوجته... يا لأمك المسكينة.

Un pezzo di carta(*)

(إنَّها مجرَّدُ ورقة)

صباحاتها الرومانية لها طعمُ «الكورنيتو»(**) ورائحة «الاكسبريسُّو» ومذاق الحياة المتجدِّد والمختلف والمبهر في معظم أحواله. تخرج مُشرِقةً، تشبه شمس «روما»، وهي ترسل خيوطها الأولى على تِلالها السبع الحاضنة لسيدة المدن، رفيعة الشأن، الموغلة في التاريخ، القديمة أحيانًا، وابنة يومها في كل حين.

تدفع أمامها عربة صغيرتها، صعبة المراس، متقطِّعة النوم، تناور الليل بطوله لتنعم بصحبة أُمِّها القَلِقَة، من القفزات الليلية لهذه الحلوة، التي لا تعرف النوم المتواصل، فتحيِّر والدتها كثيرًا. كلُّ مَن زارتهم من الأطباء يصفون حالتها بالدلال المفرِط وتوابعه وارتداداته على ليالي الأم الشغوفة بطفلتها النَّزِقَة.

تتمهَّل في مشيتها، مارَّةً على جيرانها أصحاب المحلات الصغيرة في الحي الروماني الشهير.

يحيُّونها، كلٌّ بطريقته، بعضهم يغازلها بدلال الجار على الجار! والإيطالي لطيف، وتحاياه مقبولة، ولا تزعجها. أحدهم عجوز شابَ، صاحب بقالة عريقة، يعرف كلَّ سُكَّان الحي بالاسم، حتى إنه يعرف كم ليلة ناموها عميقًا، وكم من ليالي السُّهد مرَّت بهم! هذا الجار الطيب يتابع طولَ شَعرها، وينزعج إن لاحظ أنها قصَّرته قليلًا. يقول لها: «اتركيه، لا تستعجلي»... ولا تفهم الشابة الصغيرة ماذا يعني بعدم الاستعجال، غير أن نظرات زوجته المسِنَّة توحي بالإجابة المؤجَّلة.

يرحِّبُ بها «الباريستا»(***) ويلاعبُ الطفلة، ويدسُّ في يدها «الميني كورنيتو» فتضحك الصغيرة وتأخذه وتقطعه قطعًا صغيرة، وتَنثُره حولها، ويبتسم الرَّجُل راضيًا بفِعلَتها. يسألها دائمًا عن إقامتها في «الستاتي أونيتي»، كما يحلو للطَّليان تسمية أميركا، ويتأهَّب للهجوم كلَّما حاوَلَت مدح شيء فيها. يضمُّ كفَّيه ويرفعهما لمستوى الصدر، بحركة يجيدها أهل هذا البلد،كلَّما امتعضوا من أمرٍ أو تساءلوا عنه. يقول: «لا تخبريني عن بلد لا يعرف أهله كيف يشربون القهوة». ويواصل بالكفَّين المحتَجَّتَيْن: «كيف تحكم هذه الستاتي أونيتي الدنيا وهم يشربون القهوة في أشياء كالدِّلاء؟!».

تخرج الأمُّ الشابة إلى البياتسا، التي تطلُّ عليها عمارات الحي، التي تشهد الاحتفالات العارمة كلَّما فاز الرومانيستي(****) على أرضهم أو خارجها، غير أن فوز الفريق على غريمه اللدود «لاتسيو» يكتسب طعمًا آخر واحتفالًا كبيرًا، قد يمتدُّ ليلةً بطولها.

هذه البياتسا، تقول المرأة الشابة: هي إيطاليا صغيرة، ترى فيها أهل هذا البلد، من كل مدنه وقراه، يجتمعون يوم فرحهم، لا يتخلَّف أحدٌ، ولا ينبغي له أن يفعل، يرقصون ويغنُّون ويأكلون النقانق المشوية، وتطلُّ عجائزهم من الشبابيك المحيطة، ملوِّحاتٍ بعلم بلادهن، وعَلَم فريق «روما»، ويشاركن الجميع التصفيق والغناء.

تمضي بسعادة المحِبِّ لأهله من الجيران الطيِّبين، وتحيِّي بائعة الخضار النشطة، وبينهما مودَّة غامِرَة وصحبة وحكايات لا تنتهي، عن البيوت والأزواج والغربة والبعد عن الأهل، وحتى القرب منهم وتكاليفه المرهِقَة، كما تقول الإيطالية الجنوبية القادمة من «نابولي».

كانت كلما تذكَّرَت سنوات لقاءاتهما الأولى تبتسم لطُرفة تصرُّ عليها السيدة، كلَّما سألتها عن أحوال بلادها. وفيما تحاول الشابة أن تجيب، تواصل -غيرَ عابئة بتذكيرها بأن بلادها «ليبيا» وليست «لبنان»-: «أنتم في (لبنان) تعانون كما عانت (نابولي) أيام الحرب»... فتضحك يائسةً من هذه الإيطالية التي لا تعرف بلادًا، هي على مرمى حجرٍ من شواطئ «نابولي»، احتلَّتها إيطاليا وأتعَبَت أهلها طويلًا، وكثيرًا.

كانت كلَّما رَمَقَتها من خلف ركنها الصغير، حيث تجلس وأمامها الميزان، تناديها فتعتذر أن لا وقت لديها، وأنها لا تحتاج شيئًا. تلحُّ عليها لتدخل لدقائق، كما تَعِدُها مؤكِّدةً: «لن أطيل عليك، اجلسي قليلًا؛ فالعمر أمامَكِ، أمَّا أنا فلم يبقَ لي إلَّا القليل، وذاكرة تعجُّ بالصور وبالحَكي المؤجَّل، ولا أدري لمن أؤجِّله»، فتتراجع السيدة الشابة عن الاعتذار، وتدخل مع الطفلة، فتتمعَّن العجوز في قسمات الصغيرة، وتتمتم مناديةً «الجوزّو والمادونّا»(*****) ليحمياها من «المالوكيو»(******)، وتلوم على الأم الصغيرة عدم الأخذ بنصائحها، فهي لا تعلِّق لها شيئًا يقيها من العين، وتبتسم الشابَّةُ وتُطَمئِنها بأنها ستفعل.

تقول البائعة: «أنا مُتْعَبَةٌ جدًّا يا صديقتي. أنا مصلوبةٌ على لوحٍ من القلق والانشغال والجري المتواصل وراء لقمة عيشي وعيش أبنائي». وتفتعل الشابة الاندهاش، وكأنها تسمع هذه الشكوى للمرَّة الأولى، وقد سمعتها كثيرًا بعدد مرَّات خروجها من بيتها، وسِنِي إقامتها بهذا الحي العجيب بأهله، وكأنه بيتٌ واحدٌ بمئات الغرف.

تواصل السيدةُ المسنَّة: «لو أن لي قلبًا يجاورني ويؤنسني حين أنام، لو أن لي قلبًا ينبض لأجلي إن تعب قلبي أو أصابه بعضُ وَهَنٍ؛ لهان عليَّ ما أفعل». تجيبها السيدة الشابة، وهي تعرف أن لها ولدَيْن شابَّين وابنة، ويعيشون معها: «أنتِ بخير... بيتك عامر بالقلوب المحِبَّة»، فتجيب بغضبٍ: «نعم، مُحِبَّةً بقدر عذاباتي ووهن جسدي من أجلهم».

تتذكَّرها هذا الصباح وهي تمارس -بحذائها الرياضي- مشيها اليومي في شوارع «روما»، المدينة التي شهدت خطواتها الرشيقة بكعبَيْ حذائها العاليين جدًّا، وتندهش كيف لم تُرْبِكها تلك الأحذية عالية الكعوب؟ وكيف حافَظَت على المشية المزهوَّة، وأرصفة روما عبارة عن قطع صغيرة متراصَّة من الحجر الروماني، وخطأ بسيط في مشيتها قد يكلِّفها وقوعًا ومُخاطَرَةً؟

تذكَّرَت –مبتسمةً– السيدة الإيطالية بائعة الخضار، عندما احتجَّت على تهنئة الشَّابَّة لها بنجاح ابنها وتَخرُّجه، فقد آن أوان راحتها، هكذا أتبعت تهنئتها. لكن البائعة أجابتها بصوتٍ تملؤه سخرية الألم وقِلَّة الحيلة: «إنها لا شيء هنا، إنها مجرَّد ورقة... Un Pezzo Di Carta»!.

---

* pezzo di carta: مصطلح إيطالي للسخرية من الشهادة التي لا تؤَكِّل صاحبها عيشًا، فيظل عاطِلًا بها وبدونها.

** الكورنيتو: الكراوسون.

*** الباريستا: عامل البار. والبار في إيطاليا مكان للجلوس لاحتساء القهوة ولتلبية الطلبات وشراء الحليب ومنتجاته والمثلَّجات، وغيرها.

**** الرومانيستي:مشجِّعو فريق روما.

***** الجوزو والمادونا: سيدنا عيسى ومريم العذراء.

****** المالوكيو: العين المسيئة أو الحاسدة.

الفهـرس

مقدمة بقلم الروائية رازن نعيم المغربي

تقديم بقلم عائدة عتيقة

عالية (1)

عالية (2) اشتباك... بين المنام واليقظة!

عالية (3) ما لي بها لا تتركني في منامي ولا في يقظتي؟!

عالية (4) «ويا مريم: (اللي قلبها مرهون...انريدوا نباها كلنا)»

عالية (5)

عالية (6)

عالية (7)الغريفة

عالية (8) ابنة عالية

قطرات الزَهَر

عَمَّتي وتشرشل

«تك تك تك يا ام سليمان» بغداد، ذاتَ ربيع

«اغزيل ماشي دُوبْ الدُّوب»

التِّكْرَة- الدنقة (1)

التِّكْرَة- الدنقة (2)

«فحمة التاقزة»

(الوادي جا) (درنة 1 و 2 أكتوبر 1959)

القمح إيحَمَلْ

ذات خلوة على ضفاف التيفري

سي عوض المسلماني

درنة التي في خاطري (ماريانا لاتسي)

من «دَرنَة» إلى «اسكوتلاند»

عين بنت

وقائع حلم معلن

مشوار

«هَنيَّة» بنت السوريلات

«من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ»

ليبيةٌ من الشرق

سيرةُ كرسي

خبزٌ ونساء

سيِّدةُ المطار

النقاصة

ذات رفقة (لندن 2010)

حكاياتٌ من سِفر الاغتراب (1) «أم تكليف»

حكاياتٌ من سِفر الاغتراب (2) «د. عطور»

سيرة ضحكة...«لا بلاكا».. ذات صيف! (1)

سيرة ضحكة...«لا بلاكا».. ذات صيف!(2)

«لا بلاكا ذات صيف»! (الثَّالثة والأخيرة)

ذات أبريل

طرابلس صباح السابع من أبريل 1976

قيالي (لورينزو المانيفيكو) روما

ثلاث عجائز من مدينتي

Un pezzo di carta(إنَّها مجرَّدُ ورقة)